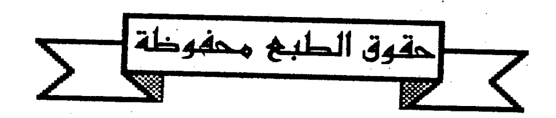
من
آداب الدعوة
فى
ضوء القرآن والسنة

دكتور
فتحي فريد

الطبعة الأولي
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ح المدرسة خلف الجامع الأزهر الشريف
ت: ٥١٠٦٧٢٤ القاهرة


حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله حمد الشاكرين ونصلي علي سيد الدعاه وإمام المرسلين سيدنا محمد الذي فتح الله به أعينا عميًا وأذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا صلي الله عليه وسلم وعلي آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

أما بعد..

فإن الدعوة إلي الله من أعظم الأعمال التي تقرب العبد من ربه ولا غرابة في ذلك فإنها رسالة وعمل الأنبياء والرسل عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام، وإذا كان للدعوة أناس منحهم الله القرآن والعلم والحكمة، فإن علي كل مسلم أن يشارك في الدعوة إلي الله وأن يسهم في نجاحها وإنتشارها علي قدر طاقته وبما تسمح به ظروفه علي أن يكون معلومًا أن المسلم من خلال الدائرة التي يتحرك فيها في أسرته وفي عمله وفي علاقته بالناس يمكن أن يكون من كبار الدعاة إلي الله لو أنه كان قدوة للناس فيما يقول ويفعل وما يأتي ويذر، كما أن القدوة الحسنة تعد أساسًا راسخًا وركنًا عظيمًا للدعاة فيما يبثون من مواعظ وما يقدمون من توجيهات وصدق الله العظيم: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾[1].

ومشاركة من العبد الفقير في قافلة الدعوة يقدم هذه الصفحات

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

تحت عنوان «من آداب الدعوة في ضوء القـرآن والسنة» داعيًا المولى عز وجل أن ينفـع بها الدعوة والدعاة وجمـيع المسلمين، وتقـع في فصول ثلاثة :

الفصل الأول بعنوان: مبادئ وآداب للدعاة.

الفصل الثاني بعنوان: حول أخلاق الداعية وثقافته.

الفصل الثالث بعنوان: شواهد للدعوة من كلام الرسول ﷺ .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* * *

الفصل الأول

مبادئ وآداب للدعاة

١ - مخاطبة الناس على قدر عقولهم

فمن عـجيب وعظيـم صنع الله فى خلـقه أن جعل لكـل فرد من جميع أنواع ما خلق شكلاً مـعينًا يعرف به ويتحدد ويتمـيز به عن غيره من جميع أفراد جنسه، ونرى ذلك بوضوح فى طائفة البشر، فلكل فرد من البشر مـنذ خلق الله الدنيا وإلى أن تقـوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها صفات معينة فى بدنه وفى نفسه يعرف بها بين الناس ويتميز بها عن جـميع إخوانه من الناس مـن مضى منهم ومن بقـى ومن يأتى إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم..**﴾ [الآية: ١١ من سورة الأعراف] وقال عز من قائل: ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**﴾ [الآية: ٤ من سورة التين] والمظاهر الجسمية والـنفسية التى تحدد كل فرد من الناس وتميزه عن غيره من جميع أفراد جنسه كثيرة من أوضحها: شكله وصوته وطبعه وفكـره فلكل فرد من الناس طبع معين ومزاج خاص بفطرة الله التى فطر الناس علـيها وقد يتشابه بعض الناس فى طباعهم كمـا تتشابه ألوانهم وصورهم وأصواتهم لكـنهم لا يتفقون فى ذلك تمام الاتفـاق وسبحان الله الذى أحسن كل شـئ صنعا وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسـنتكم وألوانكم إن فـى ذلك لآيات للعـالمين**﴾ [الآيـة: ٢٢ من سـورة الروم].

وكما أن لكل فرد من الناس كما رأينـا عوامل فطرية ومكتسبة تحدد شخصه وتميزه عن غـيره، فإن لكل طائفة من الناس تعـيش فى مجتمع معين عوامل وصفات بدنية ونفسية وفكـرية ومهنية وبيئية مشتركة تحقق لها التميز عن غيرها من الطوائـف لذا كان من أهم ما ينبغى أن يلم به

الداعية الـذى يبغى لدعوتـه نجاحًا ولتوجيـهاته قبولاً أن يتـعرف بجد واهتمام على جميع الأحوال والصفات التـى تتعلق بالطائفة أو الجماعة التى يقوم بدعوتها وتوجيهها قبل أن يتقدم إليها بدعوته وتوجيهاته، بل لا نكون مـبالغيـن لو ذكرنا أنه لـو تمكن من الـوقوف والتعـرف على ظروف وأحوال الطائفة التى يختصهـا بدعوته أيًا كانت دعوته خطبة أو موعظة أو مقالة فردًا فردًا لكان ذلـك أدعى وأضمن لنجاحه فى دعوته وتحقيقـها الهدف المرجو منهـا، وإلمام الداعية بالأحوال العـامة والخاصة للطائفة التى يـتوجه إليها بدعوته بصفة عامة، وبـأحوال كل فرد منها بصفة خـاصة إنما يعد أمرًا هامًا وضـروريًا لنجاح دعوته وقـبول الناس لها، لأنه الأساس الذى تـعتمد الدعوة وتقوم عليه: خـطبة أو مقالة أو حوارًا فى كل العنـاصر موضوعًا وفكرًا وأسلوبًا وأداء، وعـلى الداعية فيمـا يقول ويكتـب أن يجعل معـتمده فى دعـوته وأساسه الذى يـبنى عليه: العبارة المأثورة والمشهورة: «لكل مقام مقال» فتجئ دعوته للرجال مختـلفة عنهـا للنساء، ويـحاور الشاب بخـلاف ما يحاور به الـشيخ، ويخاطب العمال والحرفيين بغير ما يخاطب المثقفين وأهل العلم، وتجئ خطـبته للـفلاحين ومـن يشتغـلون بالـزراعة على خـلاف خطبتـه لمن يتواجدون فـى مستشفى مـن مرضى وأطباء، وهكـذا تنسجم نصـائحه وتوجيهاته موضوعًا وفكرًا وأسلوبًا مع حـال وبيئة الطائفة التى يختصها بدعوتـه فتؤتى أكلـها وتحقق أهدافـها، وقد علـمنا ذلك سيـد الدعاة وخاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ بصورة عملية حيث كان عليه الصلاة والسلام يخـاطب كل وفد من الوفود التـى كانت ترد إليه بما يـتفق مع حاله وبما يختلف عن خطابه مع الوفود الأخرى، كما كانت رسائله إلى الملوك والأمراء الذين دعـاهم فيها إلى الدخول فى دين الله غـير متفقة

فيما بينها وإنما اختلفت مـن واحد لآخر وبما يتلاءم مع حال كل منهم، وبصـفة نظريـة فى قوله عـليه الصـلاة والسلام: «وأمرت أن أخـاطب الناس على قدر عقولهم».

* * *

٢ - اختيار الوقت المناسب وتحديده

فمن المعلوم أن تخير الوقت المناسب وتحديد الزمن المطلوب قبل الشروع فى أى عمل من الأعمال أساس ضرورى لنجاح هذا العمل وبلوغه الهدف المنشود منه، وإذا كان ذلك أصلاً هامًا لجميع الأعمال فإنه يعد أكثر أهمية بالنسبة للدعوة وللدعاة ولكل من يعمل فى مجال التربية والتوجيه بصفة عامة. وكما يجب على الداعية ضمانًا لنجاح دعوته ووقوعها موقع القبول والرضا بإذن الله أن يتعرف على أحوال جمهوره العامة والخاصة وأن تجئ توجيهاته ونصائحه لهم متلائمة فى موضوعها وفكرها ولغتها مع تلك الأحوال فإنه ينبغى عليه أن يجتهد فى تحديد الوقت المناسب لبث توجيهاته، وتحديد الفترة الزمنية التى تتطلبها تلك التوجيهات، فكم من نصائح غالية وتوجيهات نافعة تفقد قيمتها ويضيع أثرها ولا تلقى من المتلقين والمستمعين لها قبولاً وتقديراً لأنها قدمت فى وقت غير مناسب حيث الناس متعبون أو مشغولون بأمور أخرى تجعلهم لا يصيخون لتلك النصائح ولا يتلقونها بتقدير واهتمام، وكم من توجيهات جيدة لم تحدد الفترة الزمنية التى تتطلبها تحديدًا دقيقًا فجاءت أقصر أو أطول مما ينبغى أن تكون كان نصيبها من المتلقين الرفض والإهمال وعدم الاهتمام، وليست العبرة بكثرة المواعظ وكثافة ما تشتمل عليه من آيات وأحاديث وحكم، وإنما العبرة بما تعالجه الموعظة من مشكلات فى الزمن المناسب وبالأسلوب المناسب، ولذلك فإن عظات موجزة تقدم من حين لآخر فى قضايا محددة يكون لها من التأثير والقبول والنفع ما لا تحدثه الخطب الطوال، وقد قيل: «قليل دائم خير من كثير منقطع» وللدعاة القدوة الحسنة فى هذا الأصل بسيد الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يكثر

ويطيل من تـوجيه المسلمين ونصـحهم فى جميع الأوقات كمـا يتخيل كثير مـنا، وإنما كانت تأتـى توجيهاته عـليه الصلاة والسـلام من حين لآخر لتعالـج مشكلة وقعت وبالقـدر المناسب لحال المستمـعين وحجم تلك المشـكلة فيروى البخـارى عن ابن مسعود قال: كـان النبى ﷺ يتخولنا بالمـوعظة فى الأيام كراهة السآمة عليـنا. بمعنى أنه ﷺ كان يتعهد أصحابه بالموعظة من وقت لآخـر خشية مللهم وخوفًا من تسرب السأم إلى نفوسـهم، كما يروى البخارى عن أبى وائـل قال: كان عبد الله يذكر الـناس فى كل خـميس فقـال له رجل: يا أبـا عبد الرحـمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم، وإنـى أتخولكم بالمـوعظة كما كان الـنبى ﷺ يتخولـنا بها مخافة السآمة علينا. وهذان الحديثـان الشريفان يوجهان أنظارنا ويضعان أيديـنا على مـبدأ من أعظـم مبادئ الـدعوة وأصل هام وضـرورى من أصولها وعامـل واضح من عوامل نجاحها ألا وهو: التـدقيق فى تحرى وتخير الوقت المناسب بعرض التوجـيهات والمواعظ، والتدقيق مرة ثانية فى تحديد الفترة الزمـنية التى تستغرقها تلك التوجيـهات بما يتناسب مع حال المتلقين وما تقتضيه ظروفـهم، ومراعاة ذلك عين الحكمة التى دعا الله ورسوله ودعانا إلى تمثـلهافى قوله: ﴿**قل هذه سبيـلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشرين**﴾ [الآية: ١٠٨ من سورة يـوسف]، وقولـه: ﴿**ادع إلى سـبيل ربـك بالحكـمة والموعـظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسـن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [الآية: ١٢٥ من سورة النحل].

صدق الله العظيم وصدق رسولنا الكريم.

* * *

٣ - التدرج فى تقديم المواعظ والتوجيهات

فمن مبادئ التربية والتوجيه والدعوة والإرشاد الواضحة التدرج بالمتعلمين والأخذ بيد المتلقين والمدعوين شيئًا فشيئًا، والانتقال بهم من القليل إلى الكثير ومن السهل إلى الصعب ومع التيسير والتبشير حتى يظل المدعوون على شوق وتلهف وحب لما يقدم لهم، وكى لا يتسرب الملل والسأم والقنوط إلى نفوسهم فتكون المصيبة وتعظم البلوى، لذا كان من الأخطاء البينة فى مجال الدعوة بصفة خاصة وفى مجال التربية بصفة عامة الإكثار والإطالة بدون تحديد ولا تنويع ولا سيما فى الأيام الأولى لعمل الداعية مع من يقوم بدعوتهم، والداعية الذى يطيل ويكثر ويتشدد ويناقش المتلقين فى جميع القضايا بدون تقيد بموضوع معين ولا بفترة زمنية محددة إنما يتعب نفسه ويرهقها بدون طائل ويصيب أتباعه بالملل والسأم والقنوط والنفور وذلك من أكبر آفات الدعوة وأشد بلاياها وهذا الداعية مثله مثل من يبالغ فى عبادة الله وطاعته مكلفًا نفسه ما لا يطيق من الأعمال وينتهى به الأمر إلى الملل والتعب والقعود التام عن العبادة والطاعة، لذلك كان من منهج الإسلام وآدابه فى العبادة والطاعة وفى التربية والدعوة وفى كل الأعمال التى يقوم بها المسلم بصفة عامة: القصد والاعتدال والبعد عن المغالاة والإسراف، والتيسير لا التعسير، والتبشير وليس التنفير، فيروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه - فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة». وسيدنا رسول الله ﷺ فى هذا الحديث يدعو وينصح كل مغال ومبالغ فى أمر من أمور الدين: عبادة أو دعوة أو شيئًا آخر أن ييسر على نفسه وعلى الناس فيما يقوم به من عبادة أو دعوة لأن الدين عظيم وأكبر من يؤتى

عليه أو ينتهى منه، ومن ظن ذلك فقد خسر خسرانًا مبينًا، وكان مثله مثل من يحاول مع ضعفه وخوره أن يصرع بطلاً كبيرًا وعملاقًا عظيمًا، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: «ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» وكان على المسلم الذى يبغى نجاحًا لعبادته أو لدعوته أن يأخذ من الدين ما تطيقه نفسه وتتمكن من المداومة عليه متجنبًا المغالاة التى تؤدى إلى الملل والقنوط، ومثل المسلم فى هذا مثل المسافر الذى ينبغى عليه أن يتخير لسفره من الوقت ما يطيب فيه السفر حتى لا يعرض نفسه ومن معه للهلاك ويشير إلى ذلك قوله ﷺ فى الحديث السابق: «واستعينوا بالغدوة» أول النهار «والروحة» ما بعد الزوال «والدلجة» آخر الليل، وتخصيص هذه الأوقات بالذكر لأنها أطيب أوقات السفر حيث لا يصيب المسافر فيها تعب ولا ملل ويتمكن من مواصلة سفره مع مواظبته على السفر فيها بخلاف ما لو قضى كل ساعات النهار والليل فى السفر فإنه بدون شك سوف يعيا ويهلك هو ومن معه وما معه. وهكذا يصور لنا سيد الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ كلا من العابد والداعية بمسافر فى طريق وعر وطويل، وإن بلوغ كل منهما غرضه ونجاته فى رحلته تكون فى أخذ الأهبة وإعداد الزاد والراحلة مع القصد -والاعتدال وتخير الوقت المناسب أما التواكل والمغالاة والإسراف والمجازفة والارتجال فإنها سبيل إلى الهلاك والفناء كما أشار إلى ذلك ﷺ فى حديثه الآخر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

فمن مظاهر الحكمة فى الدعوة إلى الله: المضى فيها خطوة خطوة والتدرج بها شيئًا فشيئًا قال تعالى: ﴿**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله..**﴾ [الآية من سورة يوسف] وقال عز من قائل: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة**﴾ [الآية: ١٢٥ من سورة النحل].

٤ - من أم الناس فليخفف

فمن يسر الإسلام وسماحته عدم تكليف المسلمين بما لا يطيقونه وما يستثقلون القيام به، وما لا يتمكنون من تنفيذه وأدائه إلا بصعوبة ومشقة وصدق الله العظيم: ﴿**لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها..**﴾ [الآية الأخيرة من سورة البقرة]، والإسلام فى تشريعاته وأحكامه وأخلاقه وأدابه يراعى أحوال الناس وظروفهم وأعذارهم وعللهم فلا يلزمهم شيئًا لا يستطيعونه، ولا يكلفهم أمرًا يتبرمون به أو يسبب لهم ضيقًا وحرجًا وصدق الله حيث يقول: ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج، إذا نصحوا لله ورسوله.. فهم لا يعلمون**﴾ [الآيات: ٩١:٩٣ من سورة التوبة]. ومن ذلك اهتمام الإسلام بصلاة الجماعة وحض المسلمين على أداء الصلاة جماعة فى المسجد لفضائلها الكثيرة الدينية والدنيوية وأهمها: تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وتكفير سيئاتهم ورفع درجاتهم ولسيدنا رسول الله ﷺ فى ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى بأكثر من رواية منها «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة»[1] ومنها: «صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسة وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاته ما انتظر الصلاة»[2].

---

(١) عن عبد الله بن عمر.
(٢) عن أبي هريرة.

ولأهمية صلاة الجماعة وكثرة فضائلها وعظم ثوابها رأيناه ﷺ يهدد أناسًا تخلفوا عن حضور الجماعة بتحريق بيوتهم وما تشتمل عليه كما رأيناه ﷺ لا يسمح لأحد من المسلمين بالتخلف عن الجماعة إلا إذا كان له عذر شديد كمرض عضال وغيره لا يتمكن بسببه من المشى لأداء الصلاة جماعة مع المسلمين فى المسجد ومن شواهد ذلك رده ﷺ على ابن أم مكتوم حيث طلب منه التوجه إلى المسجد عند سماع الآذان أو الإقامة ولم يرخص له فى التخلف عنها إلا لعذر لا يمكن صاحبه من الحضور إلى المسجد فإنا نراه ﷺ يوصى الأئمة بالتخفيف على المسلمين فى الصلاة ويحذرهم من الإطالة فى القراءة أو فى الركوع والسجود بما يؤدى إلى ملل المصلين وسأمهم وتعبهم ولا سيما أصحاب الأعذار منهم كالعجزة والضعفاء والمرضى والمسافرين وأصحاب الحاجات ممن تتعبهم الإطالة وترهقهم وربما أدى ذلك بهم إلى القعود عن صلاة الجماعة فى المسجد مؤدين لها فى بيوتهم أو فى مقر عملهم فيحرمون ويحرم المسلمون من خير وفير وثواب عظيم بسبب ما كان من إطالة الإمام وعدم مراعاته لظروفهم، والإطالة المكروهة وغير المقبولة هى بدون شك الإطالة الواضحة التى تجئ فوق الخشوع والخضوع فى الصلاة وفوق أداء أركان الصلاة من القيام والقراءة والركوع والسجود على الوجه السليم ولربما تكون الإطالة مستحسنة فى بعض الصلوات كالفجر وفى أحوال يرغب المصلون فيها فى الإطالة ويحبونها لإشباع أفئدتهم تبتلاً وخشوعًا عندما لا يكون من بينهم من يمل الإطالة ويتضايق منها لعذر من الأعذار المعروفة ولسيدنا رسول الله ﷺ فى تحذير الأئمة من الإطالة فى الصلاة مراعاة لأصحاب الأعذار والظروف أحاديث متعددة منها ما رواه البخارى عن

أبى مسعود أن رجلاً قال: والله يارسول الله أنى لأتأخر عن صلاة الغداة (أى الفجر) من أجل فلان مما يطيل بنا فما رأيت رسول الله ﷺ فى موعظة أشد غضبًا منه يومئذ ثم قال: إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وما رواه البخارى أيضًا عن أبى قتادة عن النبى ﷺ قال: إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه» إذا كان ﷺ يتخفف فى الصلاة مع حبه الإطالة إشفاقًا على الأم ورحمة بها من أجل ما يصيبها من هم وحزن لبكاء طفلها فإنه يقاس على ذلك كل ما وقع أو يحدث من أمور وأحوال يكون المصلون أو بعضهم بسببها فى هم وتفكير وإنشغال مما ينبغى على الإمام أن يراعيها ويراعى ظروف الناس فيخفف من الصلاة ويتجنب الإطالة ولا بأس من أن يطيل المصلى إذا كان يصلى بنفسه فقط وله رغبة فى الإطالة كما أرشد إلى ذلك ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء» فتخفيف الأئمة على المصلين ومراعاتهم لظروفهم وأعذارهم أمر محمود وإنه فى الوقت نفسه مظهر واضح لسماحة الإسلام ويسره.

* * *

٥ - اتقاء الشبهات

فمن منهج الإسلام فى إصلاح المجتمع: قضاؤه على الفتن فى مهدها ومحاربته الفساد قبل وقوعه، ولذلك سبل متعددة منها: تحذير الإسلام الناس من صنع أى شئ لا يتأكدون من حله ولا يتأكدون من حرمته وهو ما يعرف بالشبهة، فكل أمر فيه شبهة ينبغى على المسلم تجنبه وعدم الاقتراب منه خشية أن يؤدى ذلك إلى وقوعه فى الحرام وقد صور رسول الله ﷺ ذلك بصورة يراها معظم الناس وهى صورة الغنم التى ترعى حول الحقول والبساتين وتجلب الحرج والإثم لصاحبها بنزولها فى الحقول والبساتين وإتلافها ما فيها من زرع وفاكهة، لذا كان من الأفضل لصاحبها أن يبتعد بها كلية عن هذه الحقول حتى يسلم من الأذى والحرج يقول ﷺ فى ذلك من حديث له: «من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه».

وإذا كان اتقاء الشبهات أمرًا مطلوبًا ومحبوبًا لجميع الناس حيث يحفظهم كما ذكرنا من الفتن ويصونهم من الذنوب والآثام فإنه يعد أكثر أهمية وأشد تأكيدًا بالنسبة للدعاة والمصلحين حيث يقتدى بهم الناس فيما يقولون ويفعلون وفيما يأتون ويذرون وكلما كانوا أكثر نزاهة وأشد بعدًا عن الشبهات كان الاقتداء بهم أعظم وكان النفع بهم أعم وأشمل ولذلك يقول «ابن دقيق العيد»: «وهذا متأكد فى حق العلماء ومن يقتدى بهم فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب فى عدم الانتفاع بعلمهم» وقد نبهنا رسول الله ﷺ إلى أهمية البعد عن الشبهات، وضرورة توضيح

الداعية لما يفعله من أمور قد تخفى علـى الناس فتثير فى نفوسهم شكًا وريبًا وذلك عندمـا زارته أم المؤمنين زوجته صفيـة رضى الله عنها وهو معتـكف فيما رواه الـبخارى، ولما أرادت العـودة ومشى معهـا الرسول ﷺ ليعيدها تـصادف أن مر رجلان من الأنصار فاستوقـفهما رسول الله ﷺ وأعلمهما أن التى معه صفية زوجه فكبر ذلك عليهما وقالا: سبحـان الله يارسول الله. فقال ﷺ إن الشـيطان ليبلـغ من ابن آدم مبلغ الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا.

فإذا كان سيد الدعاة وخاتم الرسل وقد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر يحذر من الشبهات هذا الحـذر الشديد فإن على جميع الناس ولا سيما الـعلماء والدعاة والمسؤلين أن يكونـوا أكثر اتقاء للـشبهات وأشد حذرًا منها حتى تقع توجيهاتهم ودعواتهم من الناس موقع الرضا والقبول ويعظم النفع والاقتداء بهم.

* * *

٦ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

على كل فرد أن يكون له دور واضح ومشاركة فعلية فى نشر الفضائل والمبادئ الكريمة والمثل الطيبة على أرضه وبين أهل مجتمعه وأن يحميه من المفاسد والرذائل وكل ما يعرضه للفتنة والسوء وأن يقوم بنفسه بذلك غير متكل على غيره ولا يعتمد على جهود الحكومات والمسئولين فى ذلك، حيث لا تتمكن الحكومات فى كثير من الأحيان من أن تصل جهودها فى ذلك إلى داخل البيوت والأسر لتصلح فسادها أو ما بين الأفراد من معاملات وقضايا فردية لتقوم بحسمها، ويكفى الحكومات أن تضطلع بواجباتها تامة فى الإصلاح العام والتقويم الشامل، ولو أن الناس عرفوا هذا الواجب وقاموا به خير قيام لحققوا لبلادهم ولمجتمعهم قدرًا كبيرًا من الرقى والتقدم ولوفروا عليها جهودًا كبيرة تدفعها إلى التطور وبلوغ ركب الشعوب المتحضرة والمتقدمة.

هذا الواجب الذى ينبغى أن يقوم به كل مسلم نحو وطنه الصغير والكبير بدءًا من البيت الذى يتربى فيه وإنتهاء بالوطن الذى ينتمى إليه يعرف بالأمر والنهى عن المنكر الذى دعا الله إليه المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[١]. وجعله من صفاتهم فى قوله تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..**﴾ الآية[٢].

كما جعله من عوامل فضل هذه الأمة فى قوله تعالى: ﴿**كنتم خير**

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة التوبة: ٧١.

أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..﴾ الآية[١].

كما جعل الله الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف من صفات المنافقين فى قوله تعالى **﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض...﴾** الآية[٢].

وقد أوضح لنا رسول الله ﷺ أن قيام المسلم بهذا الواجب إنما يحمى بذلك نفسه وأهله أولاً وقبل كل شئ لأنهم لبنات فى المجتمع ينجون بنجاته ويهلكون بهلاكه فعليهم أن يقطعوا السبيل على كل من يريد به سوءًا حتى لا يلحقهم ذلك السوء وذلك فيما رواه البخارى من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

لذلك كان تراخى المسلمين وتكاسلهم عن القيام بذلك الواجب سببًا فيما يقع من فساد وتأخر فى كثير من مجتمعاتهم وفيما ينزله الله بهم من بلايا ومصائب عقابًا لهم على تقصيرهم فى ذلك فقد روى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم - وكما روى الترمذى وأبو داود والنسائى عن أبى بكر رضى الله عنه قال: يا أيها الناس: إنكم تقرأون هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم..﴾**[٣]. الآية وإنى سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠. (٢) سورة التوبة: ٦٧. (٣) سورة المائدة: ١٠٥.

يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

من آداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

ومن رحمة الله تعالى بعباده ومن يسر الإسلام وسماحته أنه طلب من المسلمين أن ينفذوا هذا الواجب على قدر طاقتهم وبحيث لا ينشأ عن ذلك ضرر أكبر ولا فتنة أعظم، فمن يمكنه أن يغير المنكر باليد يغيره بها كالوالد مع أبنائه، وكالحكومة مع الرعية، ومن لم يستطع ذلك فعليه التغيير باللسان كالعلماء والوعاظ وأهل النصح والإرشاد، ومن لم يستطع ذلك فإنه ينكر المنكر بقلبه وذلك بمجافاة أهل المنكر ومقاطعتهم والبعد عن التعامل معهم أو الاقتراب منهم فقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ومما يدل على اهتمام الإسلام بقيام المسلم بهذا الواجب دعوة الرسول ﷺ إلى تنفيذ ذلك الواجب فى كل الأحوال وفى جميع الظروف حتى فى الطرقات وفى الشوارع فقد روى الشيخان من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «إياكم والجلوس فى الطرقات فقالوا: يارسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يارسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

كما كان من رحمة الله بعباده أن جعل قيامهم بهذا الواجب صدقات تكفر من سيئاتهم وتحط من أوزارهم وقد ورد ذلك فى أكثر

من قول له ﷺ.

وحتى يحقق واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثمرته المرجوة فى تطهير المجتمع من المفاسد والرذائل وغمره بالمثل والفضائل رأينا الإسلام يدعو الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر إلى أن يكونوا قدوة -طيبة فى ذلك وأن يحرصوا على أن توافق أعمالهم أقوالهم فيقول تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم. . .﴾ الآية[١]. ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. .﴾ الآيات[١].

ويقول ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبى زيد أسامة بن حارثة رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقطاب بطنه فيها فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يافلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه.

وروى الترمذى قال قال ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

فلنتق الله ولنق أنفسنا وأهلنا وأوطاننا من الضياع والهلاك بأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر على قدر استطاعتنا.

* * *

(١) سورة البقرة: ٤٤. (٢) سورة الصف: ٢.

(أ)

٧ - من آداب الدعوة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

التعميم لا التخصيص والإشارة لا التصريح:

فقد عرفنا أن من منهج الإسلام فى إصلاح أحوال الفرد والأمة دعوة الناس إلى قيام كل منهم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما يتفق مع طاقته وبما يتناسب مع قدراته، كما عرفنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يحقق هدفه المنشود إلا إذا تم وفقًا لضوابط معينة وأداب محددة من أهم هذه الضوابط أن لا يترتب على تخفيف المنكر أو تغييره منكر أشد وضرر أكبر لذا وجب على من يتصدى لتغيير المنكر ولا سيما من يكون منهم فى موقع المسؤولية كالأهل والمسؤولين والدعاة والموجهين أن يكونوا فى منتهى الحيطة والحذر والفطنة والحكمة، وكان من مظاهر الحكمة فى تغيير المنكر: البعد عن التخصيص إلى التعميم وعن التصريح إلى الإشارة والرمز، فكم من نصائح كانت سببًا فى الإفساد لا الإصلاح، وكم من توجيهات زادت من أخطاء المخطئين وضاعفت من مفاسد المفسدين لأنها أخطأت طريقها الذى كان ينبغى أن تمضى فيه، حيث خصصت وكان ينبغى أن تعمم، وصرح بها بدلاً من الإشارة والرمز، وكثير من أهل الفساد والإجرام تأخذهم العزة بالاثم فلا يطيقون النقد ولا يتقبلون التوجيه لأسباب كثيرة من أهمها: أنهم يرون أنفسهم محسنين وهم مخطئون، وإنهم أكبر من أن يواجهوا بخطأ ويرشدوا إلى طريق الله المستقيم وصدق الله حيث يقول: ﴿قل هل **ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم**

يحسبون أنهم يحسنون صنعًا..﴾ [الآيات: ١٠٣، ١٠٤ من سورة الكهف]، فالدعوة حكمة وفن ومهارة ومن الحكم المأثورة والمشهورة «النصيحة فى الملأ فضيحة» ويكفى الداعية أن يستشهد بقول سيدنا رسول الله ﷺ «من غشنا فليس منا» إذا كان يحذر الناس من الغش، أو يتحدث إلى قوم دأبوا على الغش، كما يكفيه إذا كان يتحدث إلى جماعة دأبوا على أيذاء الناس عمومًا والمسلمين منهم بصفة خاصة بكل سبل الإيذاء وجميع ألوانه لن يقرأ عليهم قوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» بدون أن يوجه نداءه لشخص معين، وبذلك تقع موعظته موقعها وينتفع بها جميع المدعوين المذنب منهم والبرئ فالمذنب يدرك بفطنته خطأه ويعمل على تصحيحه، والبرئ يزداد بعدًا وحذرًا وتجنبًا للوقوع فى ذلك المنكر، وقد علمنا سيد الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ ذلك، حيث كان عليه الصلاة والسلام يؤثر التعميم على التخصيص والإشارة على التصريح فى معالجة ما كان يحدث من أخطاء وإصلاح ما يراه من فساد كأن يقول ﷺ : «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» بدلاً من قوله للمذنب على حده: «أنت فعلت كذا وكذا..». وبهذا الأسلوب يبعد الداعية من يدعوه عن الوقوع فى الحرج ويقى نفسه من العتاب واللوم والمؤاخذة وتقع مواعظه وتوجيهاته من النفوس موقع القبول والرضا بإذن الله وصدق الله العظيم: **﴿قل هذه سبيلى..﴾** ويقول سبحانه: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾**.

* * *

(ب)

٨ - من آداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

فمن المعلوم أن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يدعونا إليه الإسلام فيما نتلوه من آى للذكر الحكيم ونقرأه من كلام الرسول ﷺ لا يقوم به جميع الناس فى كل الأوقات بأى أسلوب يتراءى لهم، وإنما هناك آداب وضوابط ينبغى توافرها حتى يحقق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الأمل المنشود والغاية المرجوة منه فى إصلاح أحوال البلاد والعباد - فمن أهم المحاذير التى ينبغى التفطن لها فيمن يحاول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ألا يؤدى عمله إلى تضخم المنكر، فكم من مفاسد يسيرة ومنكرات ضئيلة استفحل خطرها وعم ضررها واستعصى حلها لعدم التعامل معها بعقل وحكمة، لذا وجب على من يحاول تغيير منكر ما أن يكون واثقًا من أهليته واقتداره على تغييره بعد علمه التام بأن ما يقدم على تغييره منكر فى الشرع والعقل والعرف وليس منكرًا فقط فى مذهب محدد أو رأى معين، وبعد ذلك يكون حكيمًا وعاقلاً فى تعامله مع هذا المنكر، ومن سبل هذه الحكمة: محاولة تهدئة الموقف انتظارًا للحظة معينة يمكن التغيير فيها بدون أضرار وقد تكون هذه التهدئة بإمهال صاحب المنكر والغفلة عنه لبعض الوقت، ويأتى بعد ذلك دور النصح والتوجيه والإرشاد ثم يكون فى النهاية التغيير العملى والفعلى للمنكر بعد هدوء الأمور وراحة الأعصاب، وتحقيق التوجيهات والأهداف المرجوة منها، بهذه الحكمة فى التعامل مع المنكر يمكن تخفيفه أو تغييره بإذن الله، وذلك على

خلاف التعامل معه بالعنف مرة واحدة بدون تقدير ولا تدبير وبغير مرور بالمراحل والخطوات السابقة مما ينذر بوخيم العاقبة وسوء النتيجة والعياذ بالله، ويعلمنا سيد الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ هذه الآداب فى كيفية مواجهة المنكر والتعامل معه فى الحديث الشريف الذى يرويه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، فقال رسول الله ﷺ: لا تزرموه دعوه، فتركوه حتى بال - ثم إن رسول الله ﷺ دعاه ثم قال: إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن. . فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه. وفى رواية أخرى: «فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

وندرك فى الحديث الشريف حصافة الرسول ﷺ فى قطع الطريق على فتنة كادت تقع بالمسجد فى حضوره بين الصحابة رضى الله عنهم وبين الأعرابى الذى ارتكب المنكر فى المسجد، وقد أطفأ عليه الصلاة والسلام نار الفتنة وعالج المشكلة بالحكمة التى رأيناها والتى تعد منهجًا قويمًا يجب دراسته وفهمه وتطبيقه لكل من يهتم بالدعوة وبالتربية وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ونفيد من الحديث النبوى الشريف مع ما سبق أدبًا ومواعظ منها:

- تخير الداعية للوقت المناسب من أسس نجاحه فى دعوته.
- التمهل والتروى عامل هام من عوامل تغيير المنكر حيث فى التسرع الخطر والضرر.
- التدرج فى تغيير المنكر وعدم مواجهته مرة واحدة من أهم آداب

وضوابط تغيير المنكر.

- إن علاج المشكلة لا يكتفى فيها بالحلول المسكنة، وإنما يتحقق باستئصالها من جذورها، وبمواجهة جميع أطراف وعناصر المشكلة.
- إن مخاطبة الناس على قدر عقولهم أصل كبير وأساس متين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- إن تعمير بيوت الله بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن ومدارسة العلم وتنقيتها من الخلافات والمنكرات من أعظم ما يتقرب به العبد لربه.

وهكذا نرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر محفوفًا بالمحاذير والآداب والضوابط ولا يؤتى ثمرته إلا إذا تم بحكمة ووعى وبصيرة، وصدق الله: **﴿قل هذه سبيلى...﴾**(١)، **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة...﴾**(٢).

* * *

(١) سورة يوسف: ١٠٨.
(٢) سورة النحل: ١٢٥.

الفصل الثاني

حول أخلاق الداعية وثقافته

١ - القدوة الحسنة

من المعلوم أن رسالة الداعية - رسالة عظيمة وكبيرة وليس من عجب فى ذلك فإنها رسالة الأنبياء والرسل عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، والعلماء والدعاة ورثة الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذه بحظ وافر»، ولما كانت رسالتهم رسالة الأنبياء كان قدرهم عند الله كبيرًا وأجرهم على هدايتهم الناس عظيمًا كما يشتد حسابهم ويكبر وزرهم عند إهمالهم أو تقصيرهم فيما يتحملونه من مسؤوليات وما ينهضون به من أعمال، يشير إلى ذلك قوله ﷺ لسيدنا على كرم الله وجهه: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»، ولكى يؤدى الداعية واجبه نحو الله ونحو دينه ونحو الناس وينفع الله بدعوته الناس وتقع توجيهاته ونصائحه منهم موقع القبول والرضا ينبغى أن يزود نفسه بالعلم والمعرفة والثقافة المتنوعة والواسعة ومن قبل ذلك يكون متزودًا بزاد الإيمان والتقوى والعمل الصالح والخلق الحسن، أجل إن إيمان الداعية القوى بالله إيمانًا يملأ قلبه ويغمر فؤاده وتتجلى نتائجه وآثاره فى أعماله وتصرفاته وكل ما يقوم به تأسيًا بقوله ﷺ : «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» وتطبيقه لما يدعو الناس إليه من بر وخير وما يأمرهم به من معروف وما ينهاهم عنه من منكر على نفسه وأهله وعشيرته أولاً وقبل كل شئ من أهم الأسس التى تحقق له النجاح وتكسب دعوته القبول ومعلوم لنا جميعًا أن من أهم عوامل وأسباب نشر الإسلام فى ربوع العالم إيمان المسلمين الأول وأخلاقهم

الحسنة إيمانًا تجسَّد فى أعمالهم وتصرفاتهم وأخلاقًا شهد بها سلوكهم وأدبهم فكانوا بحق قدوة حسنة، وحيث كان لعمل الداعية بما يدعو إليه هذا الأثر الكبير رأينا الحق سبحانه يسخر من الذين تخالف أعمالهم أقوالهم ويتوعدهم بأشد العذاب فى قوله فى سورة الصف: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1] كما يقول سبحانه فى السورة التالية وهى سورة «الجمعة» مصورًا العلماء الذين يجمعون كثيرًا من العلم ولكنهم لا يعملون به ولا ينتفعون بنوره بحال دابة تحمل فوق ظهرها كتبًا كثيرة لكنها لا تدرى ولا تعلم شيئًا مما تحوى فلا حظ لها من هذه الكتب الكثيرة والثقيلة فوق ظهرها إلا التعب والنصب وكذلك العلماء والدعاة يكون علمهم ومعارفهم عبئًا ثقيلاً يسألون عليه وعما صنعوا به عند وقوفهم بين يدى الله تعالى يقول سبحانه: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا. . .﴾[1] الآية ويقول ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به» كما ذكر ﷺ ما يلقاه يوم القيامة العلماء والدعاة الذين لا ينتفعون بعلمهم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه بها فيدور فيها كما يدور الحمار فى الرحى فيأتيه أهل النار يقولون له: يا فلان مالك؟ أما كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»، فمن أكبر آفات الدعوة ومن أعظم مصائبها بدون شك: مخالفة أعمال الدعاة أقوالهم وفى ذلك يقول الشاعر:

---

(١) سورة الصف: ٢، ٣.

(٢) سورة الجمعة: ٥.

يـأيـهـا الـرجـل المـعـلـم غـيـره
هـلا لـنـفـسـك كـان ذا الـتـعـلـيـم
تصف الـدواء لذى السقام وذى الـضنى
كـيـمـا يـصـح بـه وأنـت سـقـيـم
ابـدأ بـنـفـسـك فـانهـهـا عـن غـيـهـا
فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حـكـيـم
لا تـنـه عـن خـلـق وتـأتـى مـثـلـه
عـار عـلـيـك إذا فـعـلـت عـظـيـم

جعلنا الله مـن الذين يستمعون القـول فيتبعون أحسنه وجـعلنا من عباده الصالحين العاملين المخلصين.

* * *

٢ - القرآن الكريم

يتعامل الداعية مع جمهور كبير وعريض من الناس تتعدد إتجاهاتهم وتتنوع معارفهم وثقافتهم وحتى يحظى الداعية برضاهم وتقع توجيهاته ونصائحه من نفوسهم موقع القبول والرضا عليه أن يزود نفسه بعلوم ومعارف وثقافات متعددة ومتنوعة قديمة وحديثة وأول ما ينبغى أن يتزود به الداعية: القرآن الكريم أصل العلوم وأساس المعارف والثقافة، والقرآن الكريم للداعية مصدره الأعظم ووِرده الأساسى يستعين به فيما يقرأ من سوره وآياته فى صلواته وفيما يستمد من موضوعاته وقصصه ومعانيه وأدابه وأخلاقه وحتى يحسن انتفاع الداعية ونفعه بكلام الله عليه أن يحفظ منه ما استطاع وأن يكثر من تلاوته بتأمل وتدبر وأن يؤديه أداء جيدًا وذلك بدراسة تجويد القرآن نظريًا وعمليًا وبالقراءة الواعية الدقيقة لكتب علوم القرآن وكتب التفسير والوعى التام بمناهجها واتجاهات أصحابها وما ينبغى أن يؤخذ منها وما ينبغى أن يترك، والوعى التام كذلك بكيفية الاستدلال السليم بآى الذكر الحكيم ووضع كل منها حيث ينبغى أن توضع، والوعى التام أيضًا بكيفية التعامل الصحيح مع القصص القرآنى، هذا القصص الذى يمثل قدرًا كبيرًا من سور القرآن وآياته والهدف منه تحقيق الاتعاظ والاعتبار وليس التسلية ولا سرد وقائع التاريخ وتحديد الأشخاص والزمان والمكان وصدق الله " ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب..**﴾[1] الآية، ويقول سبحانه: ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك..**﴾ الآية، ينبغى على الداعية أن يعى ذلك جيدًا وأن يجئ تعامله مع

---

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) سورة هود: ١٢٠.

القصص القرآنى منسجمًا مع الهدف العام للقصص القرآنى فى كلام الله، فيستنبط من القصة ما تشتمل عليه من دروس وعبر بطريقة غير مباشرة حيث تستقر من النفوس وتتمكن من الأفئدة فلو أراد الداعية أن يحث الناس على العلم ويقفهم على أهميته وعظيم مكانته مستعينًا بما ورد فى القرآن الكريم من حديث عن العلم لوجد من ذلك آيات كثيرة تدعو إلى العلم وتنوه بعظيم قيمته بصفة مباشرة كقوله سبحانه: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون...﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿... وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً..﴾[2] وقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات...﴾[3] الآية، وكثير غيرها من الآيات التى تحض على العلم بصفة مباشرة، وهناك آيات أخرى تحث على العلم وتحض عليه بصفة غير مباشرة وهى مما ورد فى قصص القرآن الكريم كما ترى ذلك فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام من خطته الدقيقة التى حققت الأمن لمصر وما جاورها وأنقذتهم من الهلاك فى سنوات القحط والجفاف ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبًا.... فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾[4] الآيات، وكما نرى فى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ حيث استطاع أحد رجال سليمان أن يأتى بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه بوساطة علم عنده ﴿قال الذى عنده علم...﴾[5] وكان سليمان فى الشام وعرش بلقيس فى اليمن، وكما نرى فى قصة ذى القرنين وبنائه السد العظيم من الحديد مخلوطًا بالنحاس المذاب وقد أثبت العلم الحديث أنه يعطى الحديد قوة ومتانة أكبر قال تعالى: ﴿آتونى زبر الحديد... نقبا﴾ الآية[1].

---

(١) سورة الزمر: ٩.
(٢) سورة الإسراء: ٨٥.
(٣) سورة المجادلة: ١١.
(٤) سورة يوسف: ٤٧ - ٤٩.
(٥) سورة النمل: ٤٠.

فالقصص القرآنى كما نرى من أهم مصادر الذكر الحكيم التى تعين الداعية وتمكنه من تقديم مواعظه وتوجيهاته للناس مؤكدة وموثقة، على أن إنتفاعه ونفعه بهذا القصــص لن يحقق الهدف المنشود منه إلا إذا تم على نحــو ما عرفنا من الوقــوف عند الدروس والعظات والــعبر وعدم الاكتراث بأحداث التاريخ وعناصره من الأشخاص والأزمنة والأمكنة إذ لم تكن القصة فى القرآن إلا لتقديم الدرس وتحقيق الموعظة.

* * *

(١) سورة الكهف: ٩٦.

٣ - حسن الاستدلال بآى الذكر الحكيم

عرفنا أن الأصل الذى تقوم عليه ثقافة الداعية وتتفرع منه: القرآن الكريم بحفظه لما تيسر من سوره وآياته إن لم يكن لحفظ القرآن كله مع دوام تلاوته وحسن أدائه بدراسة تجويد القرآن نظريًا وعمليًا، كما عرفنا كيف ينتفع الداعية الانتفاع الأمثل بقصص القرآن الكريم فيما يلقى من خطب ومواعظ وما يقدم للناس من دروس وآداب وأخلاق مستفيدًا بما تتضمنه هذه القصص وما تشتمل عليه من عبر ومواعظ غير مركز على وقائع التاريخ وأحداثه وعناصره من الأفراد والأزمنة والأمكنة حيث إن ذلك لا يعد من أهداف القصة فى القرآن الكريم، ومما يهتم به الداعية ويأخذ قدرًا من عنايته وجانبًا من اهتمامه: كيفية الاستدلال بآى الذكر الحكيم على ما يقدمه للناس من آداب وما يسوقه لهم من مواعظ وحكم وأخلاق، فيجمل أن يجئ استدلاله بالآيات فى مواقعها وأن يضع كلاً منها حيث ينبغى أن توضع حتى يحقق استدلاله الهدف المرجو ويصيب الغرض المنشود من تثبيت المواعظ وتأكيد النصائح والآداب وتقريرها فى أفئدة المدعوين وتجلية المبدأ الذى يدعو إليه والأدب الذى يريد حمل الناس عليه، ولكى يحقق استدلال الداعية بآى الذكر الحكيم هذا الهدف ويبلغ به ذلك الغرض عليه بعد ما سبق أن أوصينا بإجادة حفظه لكلام الله وإجادة تلاوته بصفة مستمرة أن يكثر من القراءة والنظر فيما يعرف بعلوم القرآن مثل: الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى، ومناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى وغيرها من الكتب التى تعنى بعلوم القرآن القديم منها والحديث ثم يوثق علاقته بكتب التفسير قديمها ومحدثها

وحتى يعظم انتفاعه ونفعه بكتب التفسير عليه أن يأخذ لنفسه الحيطة بمراعاة أمور منها: أن لا يقتصر أو يكتفى فى معرفة التفسير لموقف من المواقف أو لمعنى من المعانى بالرجوع إلى تفسير واحد أو عدد محدود من التفاسير بل يرجع إلى معظم التفاسير المعروفة والمشهورة فى القديم والحديث حيث لم يحظ كتاب من الكتب السماوية والأرضية بما حظى به القرآن الكريم من اهتمام أهل العلم به مسلمين وغير مسلمين عربًا وغير عرب وقل أن يمر يوم ما بدون أن نسمع عن كتاب ألف عن القرآن أو عن موضوع يتعلق به حيث لا يمكن حصر ما كتب حول القرآن من كتب ورسائل منذ بدأ التأليف وعرفت الكتابة حتى وقتنا الحاضر، ومعلوم أن لكل مفسر منهجه وفكره، ومعلوم أيضًا أن كلام الله لا تنفد معانيه وأنه يتسع لفكر أولى الألباب مهما تعددت أفكارهم وتنوعت اتجاهاتهم وتلك من أهم ما يتميز به كلام الله على كلام البشر وصدق الله حيث يقول: **﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد ....﴾**[1] الآية، ويقول سبحانه فى آية أخرى: **﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام...﴾**[2] الآية لذا فإن على الداعية أن يقرأ حول ما يريد تفسيره من كلام الله وما يستطيع أن يرجع إليه من كتب التفسير حتى يعثر على ضالته ويقع على ما يزيده اقتناعًا، وعلى الداعية فى تعامله مع كتب التفسير قديمها وحديثها أن يركز هدفه فى الوصول إلى لب التفسير وما يمكنه من الوصول إليه حيث تمتلئ كتب التفسير قديمها وحديثها بمباحث كثيرة ومناقشات متعددة، كما يغلب على معظمها طابع واتجاه أصحابها فهناك تفاسير تتجه اتجاهًا فقهيًا

---

(١) سورة الكهف: الآية قبل الأخيرة.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

كتفسير القرطبي وأخرى تنحو منحى بلاغيًا كتفسير الكشاف للزمخشري، وثالثة تتجه إتجاهًا نحويًا لغويًا كالبحر المحيط لأبى حيان، وهذه الاتجاهات مقصود بها من غير شك خدمة كلام الله والوقوف على معانيه وأسراره من هذه الجوانب ولعل الوقوف عليها من الأهمية بمكان للباحث المتخصص لكنها قد لا تكون ضرورية ومن الأهمية بمكان للداعية الذى تتوجه عنايته لتحديد أسرار الآى واستخلاص العبر منها والآداب كما ينبغى على الداعية أن يغفل الآراء الضعيفة والمتشابهات التى تثير جدلاً وخلافًا بين المسلمين مركزًا على المسائل التى يجتمع رأى أهل العلم عليها ومن الآيات على المحكم قال تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات. . . .﴾[1] الآية، كما يجتهد الداعية فى ربط بعض آى الذكر الحكيم ببعضها وبالسورة التى تقع فيها وبالموقف أو القضية التى تتعلق بها مع الاجتهاد فى توضيح علاقة الآية بما جاء على غرارها أو مشابه لها فى سورة أخرى، وتعامل الداعية مع آى الذكر الحكيم على ضوء ما سبق يمكنه من حسن الاستدلال بها، ووضع كل آية حيث ينبغى أن توضع.

* * *

(١) سورة آل عمران: ٣.

٤ - من مصادر الدعوة: السنة النبوية الشريفة

تعد السنة النبوية الشريفة المصدر الثانى للدعوة والدعاة بعد المصدر الأول وهو القرآن الكريم، وتتمثل السنة النبوية فى كل ما أثر عن سيدنا رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة مما يعده أهل العلم شرحًا وتوضيحًا وتفسيرًا لكل ما جاء فى القرآن الكريم حيث كانت آدابه وأخلاقه وأقواله وأفعاله ﷺ بل حياته كلها ترجمة وتطبيقًا لما نزل به القرآن الكريم وصدق الله حيث يقول: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾(١) وقد سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»، وقد أشار ﷺ فى حديث له إلى تفاوت الناس والمسلمين فى النفع والانتفاع بما جاء به مبينا أن المسلمين يتفاوتون فى ذلك وأنهم ليسوا على درجة سواء فى الإفادة بما جاء به ودعا الناس إليه، فمنهم الذين ينتفعون بهديه وينفعون الناس به نفعًا كاملاً وهم أهل الفقه والدراية، ومنهم من يكون حظهم فى نفع الناس وإفادتهم دون انتفاعهم واهتدائهم بما يحفظونه ويدعون الناس إليه وهم أهل الحفظ والرواية، ثم تجئ طائفة ثالثة لا تحظى من هديه ﷺ بنفع أو انتفاع وقد جاءت هذه الطوائف الثلاث فى حديثه ﷺ الذى يصور ويشبه موقف الناس من السنة النبوية الشريفة نفعًا وانتفاعًا بحال الأرض التى ينزل عليها مطر من عند الله، فمنها ما يستجيب استجابة كاملة فتنبت الكلأ والعشب والزرع الكثير وهى الطائفة الأولى، ومنها ما تمسك الماء وتحفظه لمن يريد النفع به دون إخراج الزرع والعشب وهى

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

الطائفة الثانية ومنها ما لا تمسك ماء ولا تخرج زرعًا وهى الطائفة الثالثة وقد ورد ذلك فى الحديث الذى رواه الشيخان عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

* * *

سبل وجوانب انتفاع الدعاة بالسنة النبوية الشريفة:

وتتعدد وتتنوع سبل وجوانب إفادة الدعاة بالسنة النبوية الشريفة، فمن هذه السبل: إتصال الداعية بكتب الحديث والسنة ومعرفته بأصحابها وإلمامه بمناهجها وإحاطته بشروحها ومختصراتها، ومن أهم هذه الكتب: كتب الصحاح الستة، وغيرها من الكتب الصحيحة والمشهورة، كمسند الدارمى، وموطأ مالك، ومسند أحمد.

فمن الكتب الستة وشرحها: البخارى وما وضع عليه من شروح مثل: عمدة القارئ للعينى، وإرشاد السارى للقسطلانى، وفتح البارى لابن حجر، وقد قيل عنه: لا هجرة بعد الفتح، ومسلم وشرح النووى عليه، وصحيح أبى داود وما عليه من شروح أهمها: عون المعبود للديانوى، والترمذى وما عليه من شروح أهمها: عارضة الأحوذى لابن العربى، وتحفة الأحوذى للمباركفورى، ومن مختصرات الصحاح التى يحيط بها من الدعاة من لم يسعه الوقت: التجريد الصريح

للزبيدى وهو مختصر للبخارى، ومختصر صحيح مسلم للمنذرى بتحقيق الألبانى، ومن العلماء من قام بجمع أحاديث الصحاح فى كتب مستقلة بطريقة أو بأخرى يجمل بالداعية أن يكون له اتصال بها ورجوع إليها مثل: جامع الأصول لابن الأثير الذى جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة: البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وسنن أبى داود وموطأ مالك والجامع الصغير والجامع الكبير وكلاهما للإمام السيوطى وقد راعى فى جمعه لهما الترتيب الهجائى، كما يحسن بالداعية أن يكون له اتصال ورجوع إلى كتب الحديث التى وضعت فى موضوعات معينة مثل: «الأذكار» للنووى، و «شعب الإيمان» للبيهقى، و «رياض الصالحين» للنووى وشرحه المسمى: «دليل الفالحين» و «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذرى و «عمدة الأحكام» للحافظ المقدسى، و «نيل الأوطار» للشوكانى و «سبل السلام» للصنعانى وما وضع حول كل منها من شروح، وغيرها من كتب السنة الصحيحة.

* * *

٥ - من سبل إفادة الداعية من الحديث النبوى الشريف وضع الحديث فى موضعه والحذر من سوء الفهم له

من أهم ما يفطن له الداعية وهو ينهل من السنة النبوية الشريفة أن يضع كلامه ﷺ حيث ينبغى أن يوضع، وأن يتجنب سوء الفهم لكلامه ﷺ، حيث لا يحسن كثير فهم كلامه ﷺ على وجهه الصحيح مما يحرمهم من الانتفاع والنفع به كمن فهموا من قوله ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى موضع تأبير النخل: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» أنه يبعد الإسلام عن المشاركة فى أمور الدنيا وأحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها ويحصر دوره فى الشؤون الدينية، وذلك فهم قاصر واستنتاج ضعيف فإحالته ﷺ العلم إليهم فى شئون الدنيا يراد به العلم بالكيفيات وبالوسائل ولا يراد به نفى علمه ﷺ بما يتعلق بأمور الدنيا بصفة عامة، وكيف يقصد ﷺ ذلك وقد وردت له أحاديث ومواقف كثيرة فى تنظيم شؤون الحياة من بيع وشراء وشركة وتجارة وغيرها كما ورد فى القرآن كثير من ذلك، وكمن فهموا خطأ قعود المسلمين وانصرافهم عن الجهاد فى سبيل الله وإعداد العدة من السلاح والعتاد لإرهاب أعداء الله وأعدائهم لأنه لا أمل يرجى من ذلك اعتمادًا على قوله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»،

وليس فى الحديث الشـريف إحباط ولا تيئيس للمسلـمين وصرف لهم عن إعداد العدة لأعدائهم كما فهم ذلك خطأ وإنما ينبه ﷺ المسلمين ويحذرهم من تربص أعدائهم بهم واتفـاقهم على عداوتهم حتى يكونوا على أهبة وحـذر واستعداد دائم وأن ينبذوا التفـرق والاختلاف وكل ما يجعلهم لقمة سهلة فى أفواه أعدائهم.

ومن أهم ما يفطـن له الداعية أن يبتعد عن الاستـشهاد بالأحاديث التى لا يطيق العوام فهمها ولا تسمح ظروفهم العقلية والثقافية بتقبلها، وذلك إنطلاقًا من قاعـدة «لكل مقام مقال» فما يجمل تـقديمه لفرد قد لا يحسن تقديمه لآخر وما يقدم من المواعظ لبيئة قد لا يتم النفع به فى بيئة أخرى، فمن الأفضل للدعاة أن يتـجنبوا الأحاديث الشريفة التى لا يرقى إلى فهـمها وقبولها طوائـف كثيرة من جمهور الـناس وعوامهم، كحديث الـذباب أو حديث سجود الـشمس كل يوم تحت الـعرش وما شابه ذلك، وقـد قال الإمام النووى فى «الـتقريب» وهو يتـحدث عن آداب المحدث مع تلاميـذه فى درس الحديث: «وليتجنب ما لا يـحتمله عقولهـم وما لا يفهمونـه»، وينطبق ذلك عـلى كل ما يقدمـه الداعية لجمهوره مـن قرآن وحديث ومواعظ وتـوجيهات فلا يقـدم لهم إلا ما تتحمله عقولهموتطيقه أفهامهم.

كما يحرص الداعية على البعد عن الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة والواهية والمنكرة، وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع إلا مع التنبـيه عليه، وبيان أنه مـوضوع ليحذر منه قارئـه أو سامعه وذلك يوجب على الداعية أن يتثبت ويـتروى عند نقل أو استخدام أى حديث له ﷺ ولا سيما الأحاديث التى تروى فى غير كتب الوعظ فلا ينقل منها إلا ما يطمئن لصحته، وقـد ذكر علماء الحديث أنه لا يوجد معنى

دينى أو خلقى أو توجيهى إلا وفى صحاح الحديث وحسانه ما يوفيه، لذلك لا يوجد ما يدعو للجوء إلى الضعيف والواهى، ،رحم الله الإمام «أبو الفرج الجوزى» فقد قال: «لما لم يتمكن أحد أن يدخل فى القرآن ما ليس منه، أخذ أقوام يزيدون فى حديث رسول الله ﷺ، ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح، ويفضحون القبيح، وما يخلى الله منهم عصرًا من الأعصار».

* * *

٦ - كيفية الاستدلال بالحديث النبوى الشريف

عرفنا أن حديث سيدنا رسول الله ﷺ من أهم مصادر الدعوة والدعاة: فقهًا وعلمًا وأدبًا وخلقًا ووعظًا استشهادًا واقتباسًا وقد أشرنا من قبل إلى أهم كتب الحديث التى يصدر عنها الدعاة ويجعلونها نصب أعينهم فى كل ما ينهلون ويقتبسون من الهدى النبوى الشريف وعرفنا منهج وطريقة كل منها فى تقديم أحاديثه ﷺ، فمنها ما يتخذ تبويب الفقهاء سبيلاً ومنها ما يتخذ الترتيب الهجائى مسلكًا، ومنها ما يجمع حديثه ﷺ حسب الموضوع أو المعنى الذى تتعلق به وتدور حوله، كما أشرنا إلى أهم، وأبرز ما وضع حول كتب الحديث من شروح وتعليقات، ونشير الآن إلى كيفية انتفاع الداعية بحديث سيدنا رسول الله ﷺ الانتفاع التام فى مواعظه وتوجيهاته والطريقة السليمة والسهلة لاستشهاد الداعية بكلامه ﷺ على ما يقدم من فكر وما يناقش من قضايا وأحكام حتى تحقق مواعظه الهدف منها، ومن المعلوم أن ما يقوله الداعية أو ما يكتبه من خطب ومواعظ وتوجيهات يكون حول موضوع معين، وهذا أمر هام وضرورى بالنسبة للدعوة وللدعاة، أن يدور الحديث حول موضوع معين، وأن تتوجه المواعظ والنصائح لتجلية مسألة محددة أو مشكلة معينة، أما أن تتعدد موضوعات الحديث. ، ويعالج الداعية فى موعظته قضايا متنوعة، ويناقش مسائل كثيرة من هنا وهناك، ومما يعنى الناس ويهتمون به ومما لا يعنيهم ولا يلقون له بالاً فذلك مما يرهقه ويتعبه ويرهق المستمعين ويشتت فكرهم ويصيبهم بالملل والسأم، وبعد أن يحدد الداعية موضوع خطبته أو موعظته يجتهد فى تحديد عناصر ونقاط هذا الموضوع، ثم تجئ استعانته

بآى الذكر الحكيم وبحديث الرسول ﷺ بما يخدم موضوع الحديث بصفة عامة وبما يجلى عناصره ونقاطه الجزئية بصفة خاصة، أى بعد أن يجمع الداعية من كلام الله وكلام الرسول ﷺ كل ما يكون له اتصال وتعلق بموضوعه يقوم مرة ثانية بتصنيف ما جمع من آيات وأحاديث على ضوء عناصر الموضوع ونقاطه مع ملاحظة أنه قد يجتمع أكثر من عنصر فى الإفادة من آية واحدة أو من حديث نبوى واحد، وحتى يعظم نفع ما يستشهد به الداعية من آيات وأحاديث ينبغى أن يراعى أمورًا تساعد على تحقيق ذلك منها: وضع الآيات والأحاديث بين علامات تنصيص مع الضبط والتشكيل الجيد لها تمييزًا لها من كلامه أو من كلام العلماء إن كان الحديث مكتوبًا، أو بتصديرها بقال الله تعالى كذا أو قال الرسول ﷺ كذا مع أدائه لكلام الله تعالى بتجويد وإتقان وضبطه الجيد لكلام الرسول ﷺ وذلك يتأتى بعد تدرب وتمرن وإعداد، ولو أمكنه أن يذكر السورة التى تنتسب إليها الآية أو الكتاب الذى ورد فيه الحديثلكان النفع أكبر والفائدة أعم وأشمل، مع مراعاة تسلسل عناصر الموضوع واتصال هذه العناصر بعضها ببعض، ونسوق من الشواهد على ما ذكرنا الحديث مثلاً فى موضوع: «مكانة العلم فى السنة النبوية الشريفة» يتكون الموضوع من عناصرَ متعددة ليس المجال مجال حصرها أو استيعابها بالحديث منها مثلاً: الحث على التعلم والتعليم وما لذلك من فضائل كثيرة والأحاديث التى يستشهد بها على ذلك كثيرة فى مظانها، ومحاربة الإسلام للجهل والأمية بكل سبيل مستطاع حتى أنه ﷺ كان يفدى الأسير من قريش فى غزوة بدر إذا علم عشرة من المسلمين. ويتصل بهذا العنصر عنصر آخر يتمثل فى: الانتفاع بأى علم يفيد الإسلام ولو كان تحصيله من غير المسلمين.

ومن عناصر الموضوع أيضًا: إلتماس المعرفة الحقيقية فى أمر ما من أهل الخبرة والدراية وأصحاب التخصص الدقيق، وفى ذلك تنفيذ لمبدأ الشورى وأخذ الرأى من مصدره الصحيح، كنزول الرسول ﷺ على رأى الحباب بن المنذر فى معركة بدر، وعلى رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه فى حفر الخندق عندما تبين له أن ما يراه كل منهما هو الصواب، وكما نرى عندما يحدد الموضوع وتحدد عناصره، ويستشهد على كل منها من آى الذكر الحكيم وكلام الرسول ﷺ مع التنسيق الجيد، والضبط الدقيق، والأداء الحسن تقع المواعظ والتوجيهات موقعها من التأثير والرضا والقبول ويكون النفع بها أجل وأعظم بإذن الله.

* * *

٧ - من جوانب السنة الشريفة

سيرته ﷺ

من أهم جوانب السنة النبوية الشريفة التى يصدر عنها الدعاة فيما يقدمون للناس من مواعظ وتوجيهات الجانب العملى فى حياته ﷺ أو ما يعرف بسيرته ﷺ التى تعد فى حقيقة الأمر تطبيقًا لما جاء فى القرآن الكريم من قيم ومبادئ ونموذجًا أعلى لقوانينه وأحكامه وآدابه وأخلاقه وذلك ما تعنيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عندما أجابت من سألها عن أخلاقه ﷺ بأنه ﷺ كان خلقه القرآن، ويلتمس الدعاة سيرته ﷺ من القرآن الكريم وتفاسيره ولا سيما ما كان منها بالمأثور ومن الصحيح من كتب الحديث التى سبق الحديث عنها: ومن كتب الهدى النبوى مثل: زاد المعاد فى هدى خير العباد «لابن القيم» وكتب التاريخ العام: مثل تاريخ الطبرى وابن كثير وابن الأثير ومن كتب «دلائل النبوة» التى تعنى بإبراز ما أظهره الله على يديه ﷺ من الخوارق والآيات.

فعندما يدعو الداعية إلى فضيلة من الفضائل أو يحذر من رذيلة من الرذائل ومفسدة من المفاسد فإنه بعد أن يمهد لحديثه عن أثر هذه الفضيلة وتلك الرذيلة فى حياة المسلمين وفى سلوكهم وعلى علاقتهم ببعضهم بعضًا وبغيرهم من الأمم والشعوب علوًا ورقيًا أو فسادًا وتخلفًا فإنه يؤكد كلامه ويزيده توضيحًا وتعلقًا بالنفوس بشواهد من آى الذكر الحكيم والمختار من كلامه ﷺ ثم بمواقف عملية من حياته ﷺ بما يجعل للموعظة قيمة ويحقق لها فى نفوس المتلقين والمستمعين قبولاً وتأثيرًا.

وعلى سبيل المثال لو أن الداعية يدعو المسلمين إلى أداء الأمانات لأهلها فإنه بعد أن يمهد لحديثه مبينًا قيمة أداء الأمانة وأثر ذلك على الفرد والأمة يؤكد كلامه ويوثقه بقول الله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها...**﴾[1] الآية وبغيرها من الآيات التى تنوه بأهمية الأمانة، وبعض كلامه ﷺ فى ذلك كقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا خلق له» وكقوله ﷺ لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفة فى طعمه» ثم يتبع استشهاده من القرآن والسنة بمواقف من حياته وبشواهد من سيرته ﷺ كموقف وضعه ﷺ الحجر الأسود فى موضعه مع رؤساء القبائل ونزوله على رأيه قائلين: «هذا الأمين نرضى بحكمه» فقد شهدوا له ﷺ بالأمانة قبل بعثته وكانت أمانته سببًا كبيرًا لاقتناعهم بحكمه ورضاهم برأيه مما كان له أكبر الأثر فى رأب الصدع ودرء مخاطر الحرب التى كانت على وشك أن تقع بينهم ومعلوم أن من بين المهام التى كان يقوم بتنفيذها سيدنا على كرم الله وجهه بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة رد الأمانات التى كانت عنده ﷺ لأصحابها وكان بعضها لمشركين الذين ائتمنوه على أموالهم ومثال آخر لو أن الداعية يحث المسلمين على الزهد الصحيح فى الدنيا بأن تكون الدنيا فى أيديهم وليست فى قلوبهم فلا يتخاصمون بسببها ولا يقطعون كل أعمارهم فى الجرى وراءها فإنه يذكر لهم فى ذلك قول الله تعالى: ﴿**.. قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير...**﴾[2] الآيات وقوله سبحانه:

---

(١) سورة النساء: ٥٨.

(٢) سورة النساء: ٧٧.

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء...﴾[1] الآية وقوله ﷺ: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء» وقوله: «عرض على ربى عز وجل بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يارب لكن أجوع يومًا وأشبع يومًا فإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» ثم يتبع الداعية شواهده القرآنية والنبوية بشاهد من واقع حياته ﷺ يؤكد أنه ﷺ كان فى نفسه وفى أهل بيته قدوة عملية للمسلمين فى الزهد على الرغم من إغناء الله له ماديًا ومعنويًا وشواهد ذلك كثيرة منها أن بيته ﷺ لم يكن يضم ما يذكر من المال والمتاع والأثاث، ولم يسترح ﷺ فى مرض موته إلا بعد أن وزعت عائشة رضى الله عنها الدنانير التى كانت فى بيته وقيل إنها لم تكن تزيد على سبعة دنانير على الفقراء والمساكين فالشاهد العملى يقوى الشاهد النظرى ووضع كل منهما حيث ينبغى أن يوضع من خير ما يحقق النجاح والقبول للدعوة وللدعاة.

* * *

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

٨ - فقه الداعية

من أهم العلوم والمعارف التى يحيط بها الداعية بعد كلام الله وكلام رسول الله ﷺ علم الفقه لحاجته الماسة والضرورية إليه فى معرفة الأحكام والأدلة عليها وتبصير المدعوين بالصحيح وغير الصحيح فيما يعرض لهم من أمور تلتبس على أفهامهم فيما يأتونه من عبادات ومعاملات حيث من مهمة الداعية أن يعظ الناس وأن يفقههم فى أمور دينهم بدون أن يقتصر عمله على جانب واحد أو يزيد جانب على جانب، ومن العوامل التى تحقق للداعية النفع والانتفاع فى تفقيه المدعوين:

● **البعد عن التعصب للمذهب الذى يتبعه الداعية:**

وتنفيذ وتطبيق ما جاء فى المذاهب الأخرى إذا كان ما جاء بها مما تطمئن إليه النفس وتستريح للعمل به، ويتصل بذلك ضرورة إحاطة الداعية بالمذهب أو المذاهب التى تتبعها الجماعة أو الطائفة التى يقوم على دعوتها وتوجيهها حتى لا ينكر عليهم عملاً من الأعمال أو يطلب منهم تغيير مسلك لهم فى عبادة ما إلى مسلك آخر ويكون ما ينكره عليهم أو يطالبهم بتغييره واردًا وصحيحًا فى مذهبهم الذى يتبعونه و،ذلك من شأنه أن يثير البلبلة والاختلاف بين المسلمين لذلك وجب على الداعية حسمًا لمثل هذه المشكلات أن يكون حكيم التصرف وأن لا يلزم الناس بمذهبه أو يخطئهم فى أعمال لا خطأ فيها وإنما ينفذونها اتباعًا لمذهبهم وذلك يكون بالسماحة وسعة الاطلاع والوقوف على ما بين المذاهب من فروق فى الأعمال التى يكثر أداء الناس لها فى عباداتهم وفى معاملاتهم وعليه أن يؤكد لمدعويه أنه لا تعارض ولا تصادم بين المذاهب حيث أن اختلاف المذاهب منشؤه اختلاف فى الفهم

والاستنباط من كلام الله وكلام الرسول ﷺ وفعله وفى هذا الاختلاف الذى نشأت عنه المذاهب رحمة من الله بعباده وتيسير على المسلمين.

● **البعد عن التحليل المادى وغير المطرد للأحكام:**

وإذا اقتضت الضرورة أن يوضح الداعية لمدعويه سببًا أو علة لما أحله الله وما حرمه فليحذر التعليل المادى وغير المطرد أو على الأقل لا تجئ تعليلاته فقط تعليلات مادية وغير مطردة، وهى علل لا يتفق الناس عليها، أو يوجد ما ينقضها فلا يتوافر لها الدوام والاستمرار، كالتعليل لتحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات أو بأنه يحتوى على الدودة الشريطية، وقد يكون من الخنازير ما يتغذى على غير القاذورات، ومن الحيوانات المأكول لحمها كالبقر ما توجد به الدودة الشريطية، وكالتعليل لتحريم الربا بما يحدث من استغلال الأغنياء للفقراء مع أن كثيرًا من صور التعامل بالربا ولا سيما فى عصرنا تقع على يد أغنياء يقترضون ليزدادوا ثراء واستثمارًا وغنى، وكالتعليل للوضوء بأنه يجعل المسلم نظيفًا، وللصلاة بأنها تجعله نشيطًا، وللصوم بأنه يجعله سليمًا مع أن هذه النتائج من الطهارة والنشاط والصحة يمكن تحققها عن سبل أخرى غير الوضوء والصلاة والصوم، ومن الأفضل للداعية فى مثل هذه المواقف أن تجئ تعليلاته لمثل ذلك تعليلات دينية تأخذ صفة الدوام والاستمرار على نحو ما صنع القرآن الكريم فى كثير من ذلك كقوله تعالى بالنسبة للصوم: **﴿لعلكم تتقون﴾**[1] والصلاة: **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾**[2] وللزكاة: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣. (٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم...﴾[1] وكقوله سبحانه فى النهى عن التبذير: **﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾**[2] وفى النهى عن أكل أموال اليتامى: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا﴾**[3] وهكذا فى معظم صور الحلال والحرام نرى الحق سبحانه وتعالى لا يحدد لذلك سببًا معينًا وإنما يقرن بذلك ما يفيد أن مصلحة الناس فى تحليل ما حلل وفى تحريم ما حرم، كما أن ترك التحديد وعدم التوضيح مقصود من الله ليتبين الخبيث من الطيب والمؤمن من غير المؤمن، أما غير المؤمن فيقول: «سمعنا وعصينا» وأما المؤمن فمن شأنه أن يقول بكل تسليم وتفويض لربه: **﴿سمعنا وأطعنا..﴾**.

* * *

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

(٣) سورة النساء: ١٠.

٩ - الثقافة اللغوية للداعية

لا تقل الثقافة اللغوية للداعية أهـمية عن ثقافته الدينية إن لم تكن أكثر أهـمية منـها، ولا غرابة فى ذلـك فإن إلمام الداعـية بمبادئ الـلغة ووجوه استعمالها ووقوفه على قواعدها يمكنه من تركيب الجمل وصوغ العبارات بـناء سليمًا وصـحيحًا يبرز مـا يدور فى ذهنه من مـعان وما يجرى فى خواطره من فكر وما يريـد أن يقدم للناس من مواعظ ويبث فيهم من توجيهات وعلى قدر إحاطة الداعية بمبادئ اللغة وقواعدها من نحو وصرف وأدب وبلاغة نظريًا وتطبيقيًا يـجيئ تأثيره فى المستمعين له وتتمكن مواعظـه من قلوبهم، ودراسة الداعية للغة قواعـدها وأساليبها يمكنـه من الفهم الصـحيح لكلام الله وكلام سـيدنا رسول الله ﷺ وفهم كلام أهل العـلم، فالإسلام معجزته الكبـرى ودستوره الخالد هو القرآن الكريم، والجانب الأساسى لاعجاز القرآن الكريم يتمثل فى لغته وبلاغته، وكلام سيدنا رسول الله ﷺ يـأتى بعد كلام الله تعالى فى المنزلة فيوضح ما أجمله القرآن وتعد السنة النبوية الشريفة المصدر الثانى للإسلام بـعد المصدر الأول وهو الـقرآن الكريم فتـقول السيدة عـائشة رضى الله عـنها لمـا سئلت عـن أخلاق الرسـول ﷺ : «كان خلـقه القرآن». ويقول ﷺ : «ألا إنـى أوتيت القرآن ومثله مـعه، وإنما كان الذى أوتـيته وحيًـا أوحاه الله إلى فأرجـو أن أكون أكثـرهم تابعًـا يوم القيامة» كما يقول ﷺ : «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنـى سعد بن بـكر» فما لم يـكن الداعية دارسًـا للغة وعـلى وعى ودراية بأصولها وأسرارها لا يتحقق لـه النفع والانتفاع التامان بمصدرى الإسلام الرئـيسين وأساسـيه الأصليـين كتاب الله وسنـة رسوله ﷺ وحيث عرفنا هذه الأهمية الكبرى للثقافة اللغوية لكل من يريد أن يتفقه

فى دين الله بصفة عامة ولكل من يعمل فى مجال الدعوة بصفة خاصة فلا نتعجب إذا رأينا من علماء المسلمين من يحث المسلمين على الجد والاجتهاد فى دراسة النحو لأنه سبيل لفهم كلام الله تعالى وما يحوى من أسرار وأن المسلم كلما تمكن من فهم معانى النحو والوقوف على أحكامه كلما ازداد معرفة بالله تعالى وفهمًا لكلامه واستنباطًا لما يتضمن من معان وحكم وآداب وأخلاق، بل إننا نرى عالمًا آخر يقرر أن من أهم العلوم التى ينبغى على المسلم أن يتعلمها لأهميته فى حسن الإفادة وتمام النفع بكلام الله علم البلاغة، ويصرح بذلك أيضًا جار الله الزمخشرى صاحب تفسير القرآن الشهير المسمى «بالكشاف» فيذكر أن من يحاول تفسير القرآن الكريم بحاجة إلى معرفة علوم متعددة يجئ فى مقدمتها «علم المعانى والبيان» أى «البلاغة»، ولا تقل دراسة الداعية للأدب شعره ونثره أهمية عن دراسة النحو والبلاغة، حيث يعد الأدب ولا سيما ما قيل منه فى العصور الأولى التى تعد عصور ازدهار الأدب ونمو اللغة وعاء للغة وسجلالها فدراسة الداعية وقراءاته لأدب هذه العصور تكسبه مهارات متعددة، فتمكنه من إجادة التعبير عما فى نفسه بلسان طلق، وبلغة واضحة خالية من العيوب فى ألفاظها وتراكيبها، مما يكون له أكبر الأثر فى تمكين مواعظه من النفوس وتثبيتها فى القلوب، ذلك عدا ما يعود على الداعية بسبب هذه الثقافة الأدبية من نفع أكبر وإفادة أعظم بحسن فهم كلام الله وكلام سيدنا رسول الله ﷺ و،نفع المسلمين بهما النفع الأفضل والأمثل.

* * *

١٠ - ثقافة الداعية التاريخية

دراسة تاريخ الأمم وحضارة الشعوب بصفة عامة والحضارة الإسلامية بصفة خاصة والوقوف على سيرة المجاهدين الإسلاميين الذين لهم دور فى مجد الإسلام ونشره من الحكام والعلماء والمفكرين من الأهمية بمكان لأداء الداعية لرسالته، فإن وقائع التاريخ وأحداثه وسير المصلحين والمجاهدين وما ينتج عن الإيمان والاستقامة وحسن الخلق من رقى وتقدم وما ينجم عن الكفر والانحراف وسوء الخلق من ضعف وتخلف تعد دلائل عملية وشواهد ملموسة وأمثلة واضحة لما تقوم عليه دعوة الدعاة من مثل عليا ومبادئ طيبة وأخلاق فاضلة من أهم ما يمكنها من القلوب ويثبتها فى النفوس، ولذلك نرى القرآن الكريم وهو يسرد علينا طرفًا مما وقع من الأمم الماضية من كفر وتمرد وظلم وطغيان وغير ذلك مما كانوا يصنعونه مع رسول الله ﷺ وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام الذين أرسلهم الله لهداية الناس وإرشادهم إلى سبيل الخير يدعونا إلى النظر والتأمل والاعتبار حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فتكون نهايتنا مثل نهايتهم ويحل بنا من سخط الله وغضبه ما حل بهم فإن الكفر واحد وإن تعددت صوره والظلم موجود منذ قامت الدنيا وإن تنوعت أشكاله، يقول عز من قائل: ﴿**أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة...**﴾[1] الآية ويقول سبحانه: ﴿**أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾[2] ويقول سبحانه:

(١) سورة فاطر: ٤٤.

(٢) سورة الحج: ٤٦.

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا فنقبوا فى البلاد هل من محيص إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[١]. ويقول سبحانه: ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب...﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدعو الناس إلى التأمل فى أحوال السابقين للاعتبار بما وقع لهم والحذر من سلوك مسلكهم حيث إن العواقب واحدة وإن اختلفت صورها يقول تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾[٣] ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾[٤] ويقول سبحانه معقبًا على ما آل إليه حال قوم سبأ: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾[٥] وما آل إليه حال فرعون وقومه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾[٦]

وليفطن الداعية إلى أن ما يعنيه من معرفة وقائع التاريخ وأحداثه وما يفيده فى دعوته إنما هى العبر والنتائج وليس الدقائق والتفصيل وإن هذه العبر وتلك العظات ليست فى كتب التاريخ فحسب وإنما قد تكون فى القرآن الكريم وكتب التفسير وكتب الحديث وكتب الأدب أكثر وأظهر منها فى كتب التاريخ كما يجب على الداعية وهو يلم بوقائع التاريخ أن يكون على وعى بأن كثيرًا من أحداث التاريخ قد دونت أو فسرت

---

(١) سورة ق: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة يوسف: ١١١.
(٣) سورة البقرة: ١١٨.
(٤) سورة الذاريات: ٥٢.
(٥) سورة سبأ: ١٧.
(٦) سورة الأعراف: ١٣٧.

بدافـع من المـيل والـهوى لتـشويـه صورة الإسـلام والرسـول ﷺ والصحابة رضوان الله تعالى عليهم وأئمة المـسلمين وعلمائهم كما فعل بعض المستشـرقين ومن سار على دربهم ممن أعمـوا أبصارهم عن رؤية المثل الـعليا والمبـادئ الفاضلة والنـماذج الرائعة الـتى يحفل بـها تراث المسلمين وتاريخهم وفتحوها على بعض الهنات والمثالب التى دست فى بعض الكـتب والمؤلفات لنـقص فى التحقـيق والتدقيق أو لـضعف فى الرواية يقصدون بذلك تشكيك المؤمنـين فى دينهم وهيهات هيهات لهم ذلك **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**[1].

* * *

(١) سورة التوبة: ٣٢.

١١ - الدعاة والعلوم الإنسانية

ينبغى على الداعية أن يثقف نفسه ويزود فكره بكل ما له من العلوم والثقافات صلة وتعلق بالنفس الإنسانية التى يتوجه إليها بدعوته ويبث فيها إرشاده وتوجيهاته ويقوم على ذلك علوم وثقافات تعرف فى عصرنا بالعلوم الإنسانية وتتمثل فى علوم: النفس والاجتماع والأخلاق والفلسفة والتربية، وحتى يحظى الداعية بالانتفاع الأمثل من هذه العلوم عليه أن يتعامل معها وهو متسلح بسلاح الإيمان القوى بالله ورسله و بالثقافة الدينية والإسلامية العميقة والواسعة وعدم التسليم بكثير مما تشتمل عليه من نظريات وفكر تتعارض مع الإيمان السليم والعقيدة الصحيحة حيث كتبها أصحابها وهم أبعد ما يكونون عن الله تعالى مثل: فرويد فى علم النفس ودور كايم فى الاجتماع وكارل ماركس فى الاقتصاد، والمام الداعية بما تتضمنه وتشتمل عليه تلك العلوم من مبادئ سليمة ونظريات صحيحة ومقبولة يعنيه فى الاضطلاع برسالته من زوايا متعددة:

● إذ يتمكن من فهم النصوص الدينية فهمًا صحيحًا وسليمًا يتلاءم مع الواقع ويتمشى مع روح العصر كقوله تعالى: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾**(١) وما تشير إليه الآية الكريمة من أن أفضل سبيل للتأمل والتفكير للوصول إلى الحق والصواب ولا سيما فى القضايا الشائكة والمشكلات الصعبة هو ما يحدث فى هدوء ويتم فى سكون وعلى انفراد أو مع أفراد قلائل من أهل العقل والحكمة وليس من خلال أناس كثيرين وجماعات متعددة حيث يضيع الحق ويخفى الصواب وتتوه الحكمة مع الغوغاء والضوضاء وكثرة الجدال

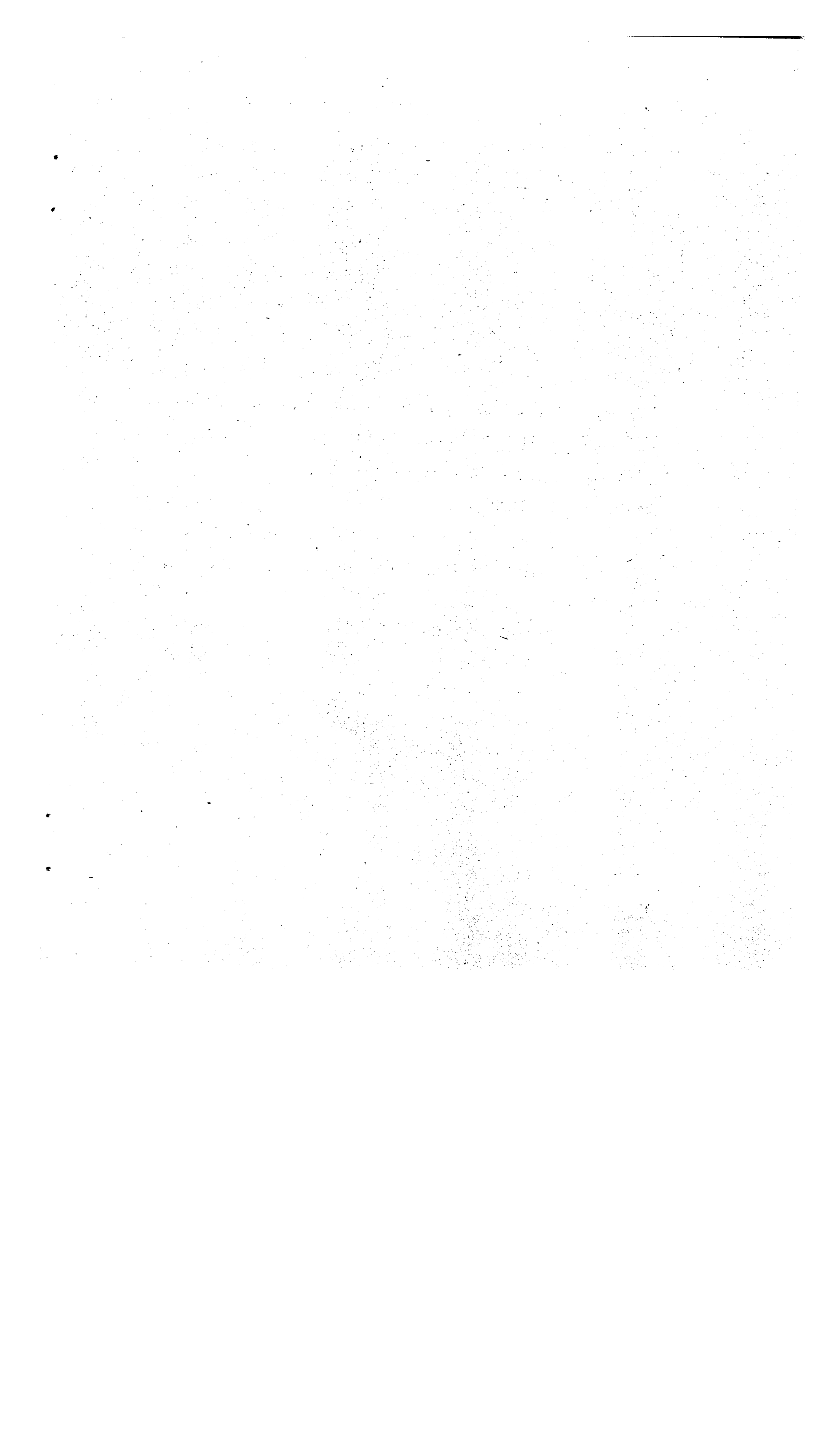
---

(١) سورة سبأ: ٤٦.

وعنفوان النقاش وذلك مما يقرره علم النفس، كما قرر علم النفس أيضًا أن الإنفعال الشديد يؤدى بأصحابه إلى ضعف الإدراك أو ضياعه مما تضيع معه الحقوق وتختلط بسببه الأمور ونفهم بذلك قوله ﷺ: «لا يقضى القاضى وهو غضبان».

● دراسة الداعية للعلوم الإنسانية وإحاطته بها على نحو ما سبق من أهم ما يعينه ويمكنه من فهم ظروف وأحوال المدعوين النفسية والفكرية والبيئية والأخلاقية وغيرها فتجئ توجيهاته متلائمة مع هذه الأحوال ومنسجمة مع تلك الظروف أسلوبًا وفكرًا وموضوعًا وزمنًا فتمتزج بنفوسهم وتلقى منهم قبولاً ويكون لها فيهم تأثير وقد روى الشيخان والترمذى أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يذكر الناس كل خميس، فقال له رجل: لوددت أنك ذكرتنا كل يوم فقال: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا.

● ومن أهم ما تقدمه دراسة هذه العلوم من فوائد للداعية فى مجال دعوته عدا ما سبق أنها تقفه على النظريات والمذاهب الفكرية التى أضحت تنتشر فى كثير من المواقع الإسلامية ولكل منها أنصار ومؤيدون وكثير منها من الشطط والانحراف بما يتعارض مع دين الله وآدابه وأخلاقه، ولا يتسنى للدعاة أن يناقشوا هذه المذاهب وأصحابها وما فيها من شطط وانحراف وهم يجهلونها، كما لا يتسنى لهم أن يكتفوا فى مجادلة أصحابها بما يحفظون من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وإنما يتسنى لهم ذلك بدراسة هذه النظريات وتلك المذاهب دراسة مستفيضة وعميقة والوقوف على ما بها من قصور وانحراف فتجئ مناقشاتهم لأصحابها أقرب ما تكون من القبول لقيامها على النظر والدليل والبرهان وهو سبيل الاقناع والتأثير.



الفصل الثالث

شواهد مختارة للدعاة من كلامه ﷺ

من جوامع كلامه ﷺ الأعمال بالنيات

قبول الله العمل من العبد يعتمد إلى حد كبير على النية التى أدى بها العبد ذلك العمل، وليس على تعدده أو كثرته أو عظم حجمه، ولذلك ربما نال عبد ثوابًا عظيمًا من الله ونال مكانة عالية عنده بعمل صغير أداه بنية طيبة يبتغى فيها وجه الله ونيل مرضاته، وحرم عبد فعل كثيرًا من الخيرات وقدم عديدًا من الطيبات من ثواب الله بل كانت أعماله تلك عبئًا عليه وسببًا فى بعده من رحمة الله، وذلك لأنه أداها لا يبتغى بها وجه الله وإنما يبتغى بها شيئًا آخر كنيل عرض من أعراض الدنيا أو الحصول على مظهر من مظاهرها الزائلة والفانية، ويوضح لنا الحديث الآتى قيمة النية ومكانتها فى قبول الأعمال أو ردها، وفى عظيم الأجر عليها أو ضآلته ولئن ورد الحديث فى واقعة معينة، إلا أنه لا يقتصر عليها وإنما يمتد ليتناول جميع الأعمال، حيث إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الحديث:

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه الشيخان.

قيمة الحديث ومنزلته:

أجمع أئمة الإسلام وعلماؤه على عظيم قدر هذا الحديث وجليل مكانته، وقد بدأ به الإمام البخارى رحمة الله عليه كتابه «الصحيح» اقتداء بالسلف الصالح فى البدء به عند مناقشة أى أمر يتصل بالدين،

وإشارة إلى أهمية النية وقيمة الإخلاص فى قبول الأعمال، وأن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ومردود.

وقد ذكر الإمام الشافعى والإمام أحمد وغيرهما أنه ثلث الإسلام حيث إن الإسلام ينتظم أركانًا ثلاثة: عمل الجنان (القلب) وقول اللسان وفعل الجوارح.

أو يريدون أنه أحد ثلاثة أحاديث تتضمن أحكام الدين وأسسه والثانى هو حديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها، والثالث: «الحلال بين والحرام بين..» رواية الشيخين عن النعمان بن بشير، وقيل حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وقد نظم الحافظ المعافرى هذه الأبيات فى ذلك فقال:

عمدة الدين عندنا كلمات ... مسندات من قول خير البرية

اترك الشبهات وازهد ودع ما ... ليس يعنيك واعملن بنية

كما أجمع العلماء على أنه من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام لأنه يتضمن على قلة ألفاظه كثيرًا من المعانى والحكام.

سبب الحديث:

لما أمر الله رسوله والمسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة كان الناس على أصناف من تلك الهجرة.

فمنهم من تخلف بدون عذر، وقد ذمهم الله في قوله: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض.. وساءت مصيرًا﴾[1]، ومنهم من تخلف لفقد الاستطاعة وعدم القدرة على الهجرة لمرض أو لغيره فاستثناهم الله بقوله: ﴿إلا

---

(١) سورة النساء: ٩٧.

المستضعفين من الرجال... عفواً غفوراً﴾[١] وهاجرت جماعة ثالثة، فمدحها الله فى غير موضع من كتابه من ذلك قوله: **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم..﴾**[٢] واشتهر أنه كان من بين الذين هاجروا رجل أراد أن يتزوج امرأة يقال لها: أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر لأجلها وتزوج بها، وكانوا يسمونه مهاجر أم قيس، فعرض الرسول به تنفيراً عن مثل قصده.

قيمة النية ومكانتها:

ومن أهم ما نتعلمه من الحديث الشريف: أن النية من الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد والروح من الجسم والماء فى العود، وأنه كما سبق أن ذكرنا لا يعتد بحجم الأعمال كيفا ولا بعددها كمًا وإنما يعتد بما يصاحبها من نيات.

وبذلك يعلمنا رسول الله ﷺ أن كثيرًا من الناس الذين لا يتمكنون من فعل الخيرات لفقرهم المادى أو لعدم استطاعتهم لظروف مرض أو غيره يحصلون من الثواب كما يحصل الذين يؤدون هذه الأعال وذلك لمجرد نيتهم وتمنيهم أنهم يودون المشاركة فى هذه الأعمال لولا ما حل بهم من عجز أو مرض أو فقر، لما رواه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ : «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا أفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط بماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا

---

(١) سورة النساء: ٩٨، ٩٩. (٢) سورة الحشر: ٨.

يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء».

كما أن من تعود على المشاركة فى عمل من الأعمال الطيبة كالجهاد فى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإصلاح ذات البين، ومدارسة العلم، وتحفيظ كلام الله، ومساعدة الفقراء والمساكين وغير ذلك من وجوه الخير ثم منعه مانع من ذلك كفقر أو مرض أو عذر آخر فإنه يأخذ ثواب ما كان يؤديه بفضل نيته، لما رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا»، وما رواه البخارى أيضًا عن أنس رضى الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال: «إنا تركنا بالمدينة أقوامًا ما سلكنا شعبًا ولا قطعنا واديًا إلا كانوا معنا، حبسهم العذر».

ولما كان القبول والثواب لا ينظر فيه إلى الأعمال وإنما إلى ما يرتبط بها من نيات، فإنه كذلك يختلف كثرة وقلة وقوة وضعفًا باختلاف النوايا وما يصاحبها من إخلاص، فعلى قدر الإخلاص يكون الثواب، ولذلك روى النسائى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم، فقال رجل: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان أخذ أحدهما فتصدق به.

ولعنا ندرك بعد هذا قيمة الإخلاص فى قبول الأعمال ورفع درجاتها كما يطلعنا على ذلك حديث «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه الكريم» وأثر الشرك والرياء فى رد الأعمال

ورفضها كما فى حديث الثلاثة: المجاهد والمتصدق والعالم الذين يكونون أول من تسعر بهم نار جهنم وكما فى الآيات من سورة البقرة حول التصدق والانفاق ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم....**﴾ الآيات.

من صور البلاغة فى الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات» أسلوب قصر، طريقه «إنما» يفيد تأكيد أن قبول الأعمال والثواب عليها، أو الأعمال الكاملة والصحيحة ليس فى كمها ولا كيفها وإنما فيما يصاحبها من نيات، وإفادة «إنما» للقصر لتضمنها معنى «ما وإلا» فتقدير العبارة السابقة: ليست الأعمال الصحيحة أو المقبولة إلا ما صحت نياتها، كما تفيد العبارة التعريض وهو المعنى المراد منها بمهاجر أم قيس وكل من يماثله من كل من يعمل عملاً لا يبتغى به وجه الله والتعريض من أحسن مواقع إنما، ويراد بالتعريض: أن يطلق الكلام ويراد به معنى آخر يكون هو المقصود كقوله تعالى: ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[1] وقوله: ﴿**إنما أنت منذر من يخشاها**﴾[2] فلا يراد من الآيتين ظاهرهما وهو قصر التذكر على أصحاب العقول السليمة وقصر إنذار الرسول على من يخشى الله والدار الآخرة لأن ذلك أمر معلوم بالبداهة، وإنما يراد التعريض بالمشركين وأنهم لا يعقلون، وإنهم كالبهائم والحيوانات، وأن من يطمع فى التذكر منهم كمن يطمع فى حصول ذلك من الحيوان الأعجم، وفى ذلك أيضًا تعريض بالنبى ﷺ وأنه لشدة حرصه على هداية الناس كمن يطمع فى حدوث ذلك من الحيوان الأعجم.

كما لا يقصد من الحديث ظاهره وهو قصر قبول الأعمال على ما يصاحبها من نيات، وإنما للتعريض بمهاجر أم قيس.

---

(١) سورة الرعد: ١٩. (٢) سورة النازعات: ٤٥.

والتعريض من فنون البيان، ويستخدم في مجالات كثيرة منها: مجال الدعوة إلى الله والإرشاد إلى السلوك الأمثل بأدب ولطف وبدون إحراج للمدعو، ومن أمثلته ما كان بين سيدنا عمر وسيدنا عثمان رضى الله عنهما عندما دخل عثمان المسجد وعمر يخطب فقال له عمر رضى الله عنه: أية ساعة هذه؟ قال: يا أمير المؤمنين انقلبت من السوق فما زدت على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضًا!! وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل.

«وإنما لكل امرئ ما نوى» أى لكل امرئ من الثواب على قدر نيته وما تتضمنه من إخلاص، وذلك تأكيد لما ورد فى العبارة السابقة «إنما الأعمال بالنيات» أى قيمة الأعمال أو كمالها بنياتها، وتكرار ذلك التأكيد لبيان قيمة النية وعظيم مكانتها فى قبول الأعمال أو رفضها.

كما تفيدنا هذه العبارة والتى تسبقها أن الأعمال العادية من أكل وشرب وقراءة وزيارة للصديق وغير ذلك إذا نوى صاحبها بها التقرب إلى الله، كالتقوى بالأكل والشرب على طاعة الله، وإطعام الأولاد والأهل إبعادًا لهم عن السؤال، وزيارة الصديق للاطمئنان عليه كانت طيبة ويثاب صاحبها على ذلك، وقد أشار ﷺ إلى ذلك فى قوله: «إنك لن تنفق النفقة تبتغى بها وجه الله إلا أثبت عليها، حتى اللقمة تجعلها فى فم امرأتك».

وفى التعبير «بما» الوصولية «ما نوى» إفادة للشمول والتعميم لكل ما ينويه الإنسان من خير أو شر.

وقد أفادت هاتان الجملتان ما ينبغى أن يكون عليه العمل حتى يحقق لصاحبه القرب من الله وهو: أن يكون العمل صالحًا وخالصًا من الرياء والشرك كما ورد فى قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه

فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾[١] ولما كان فى هاتين العبارتين: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» شئ من الابهام الذى يحتاج لتوضيح، فقد جاء التوضيح فى العبارات التالية، والإيضاح بعد الإبهام من فنون البلاغة أو من وجوه الاطناب، وهو أن يلقى المعنى فى صورتين: إحداهما مبهمة والأخرى موضحة وفى ذلك تشويق للسامع وتمكين للمعنى فى نفسه.

«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» توضيح لما أبهم فى العبارتين الأوليين، أى من كانت هجرته يريد بها وجه الله وإتباع توجيهات رسوله فقد نال ثواب الله ورضا رسوله، ولا يقتصر ذلك على أمر الهجرة فقط بل يشمل كل ما يؤديه الإنسان من أعمال لما سبق أن ذكرنا من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويراد بالهجرة إذا الانتقال من الأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة أو الانتقال من النوايا الفاسدة التى تحبط الأعمال إلى النوايا الطيبة التى تبارك الأعمال وتحقق لها القبول، وهذا الاستعمال الثانى فى شمول الهجرة لكل الأعمال يكون على سبيل الاستعارة التمثيلية، فى تشبيه من يعمل عملاً صالحًا يريد به وجه الله بمن هاجر من مكة إلى المدينة ابتغاء وجه الله وحبًا لرسوله، وتشبيه من يعمل عملاً لا يريد به وجه الله بمن هاجر يريد غرضًا من أغراض الدنيا ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية والاستعارة التمثيلية أبلغ أنواع الاستعارة، وسر بلاغتها يتمثل فى: الإيجاز - والمبالغة - وتأكيد المعنى بذكر الدليل عليه، والتصوير البديع.

---

(١) سورة الكهف: الآية الأخيرة.

وفى قوله: «إلى الله ورسوله» بعطف «الرسول» ﷺ على لفظ الجلالة بالواو دليل على أن طاعة الرسول من طاعة الله وأن حبه حب لله تعالى.

وفى قوله: «فهجرته إلى الله ورسوله» بإظهار لفظ الجلالة ولفظ «الرسول» وكان ينبغى إضمارهما لتقدم ذكرهما ظاهرين عن قرب لتعظيم هذه الهجرة وتعظيم المهاجر إليه إن كانت الهجرة حقيقية أو لتعظيم العمل لما فيه من إخلاص وتعظيم، وتعظيم ما أدى العمل من أجله وهو: الله ورسوله ويعرف ذلك بالإظهار فى مقام الاضمار.

«ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» أى من كانت هجرته أو عمله ليس من أجل الله ورسوله وإنما لطلب غرض من أغراض الدنيا فقد باء بالفشل وباء عمله - وتكمل تلك العبارة العبارة السابقة، حيث إن من يؤدى عملاً من الأعمال لا يؤديه إلا لواحد من غرضين إما ابتغاء مرضاة الله وإما نيل الشهرة والمجد والكسب فى الدنيا، ولا يخرج عمل يعمله فرد من الناس عن هذين المقصدين، وذلك من فنون البلاغة ويعرف بروعة التقسيم كما فى قوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور.. إنه عليم قدير﴾[1].

وفى قوله: «أو امرأة ينكحها» بتخصيص المرأة بالذكر من دون مظاهر التمتع فى الدنيا لسببين: أولهما أن يكون ذلك قرينة ودليلاً على أن المقصود بهذا الكلام هو مهاجر أم قيس الذى هاجر من أجلها، الثانى: الإشارة إلى أن المرأة فتنتها أشد وإغراؤها أقوى من كل شهوات الدنيا، ولذلك قدم الله ذكرها فى عرضه لمفاتن الدنيا وشهواتها فى قوله:

---

(١) سورة الشورى: ٤٩، ٥٠.

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[١].

كما أشار ﷺ إلى ذلك فى قوله: «ما تركت من بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء».

وهكذا ترى أن تخصيص المرأة بالذكر مع كونها داخلة فى متاع الدنيا لهذين السببين: السبب الخاص بمهاجر أم قيس والسبب العام وهو التنبيه إلى أن فتنة المرأة أشد أنواع الفتن ويعرف ذلك فى البلاغة بالتخصيص بعد التعميم وهو من وجوه الاطناب.

وفى قوله ﷺ: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» بالاضمار وترك الاظهار كما فى العبارة السابقة، وهذا الاضمار فى مقامه لتقدم ما يعود إليه الضمير، وذلك للتحقير والتهوين من شأن هذه الهجرة ومن قيمة ذلك العمل الذى يؤدى لغير وجه الله وللتهوين والتحقير كذلك من شأن هذا الذى يؤدى من أجله ذلك العمل وأنه من الهوان والحقارة بحيث لا يستحق الذكر بالاضافة إلى ما فى ذلك من إيجاز فى التعبير.

وبذلك نرى أن هذا الحديث الذى يعد صورة واضحة من جوامع كلمه ﷺ يشتمل من فنون البلاغة على:

١ - القصر بإنما للتأكيد والتعريض فى قوله:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

٢ - التكرير الذى وقع موقعه وأصاب هدفه فى قوله: «وإنما لكل امرىء ما نوى». وأفاد التأكيد.

٣ - الإيجاز فى التعبير «بما» الموصولية» فى قوله «ما نوى».

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

٤ - الإيضاح بعد الابهام فى قوله: «فمن كانت هجرته...».
٥ - روعة التقسيم فى قوله: «فمن كانت هجرته.. ومن كانت..».
٦ - التخصيص بعد التعميم فى قوله: ... أو امرأة...
٧ - الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله: ... فهجرته إلى الله ورسوله.
٨ - الإضمار فى مقام الاضمار والإيجاز فى قوله: «فهجرته إلى ما هاجر إليه».

كما نخرج من الحديث بالدروس التالية:

١ - أن الأعمال لا تتمثل قيمتها فى كمها أو فى كيفها وإنما فيما يتعلق بها من نيات.
٢ - أن الأعمال التى يثاب أصحابها عليها هى التى تكون صالحة وابتغى بها وجه الله.
٣ - أن كل الأعمال الدينية والدنيوية تحقق لأصحابها الفوز برضاء الله إذا ابتغوا بها وجهه.
٤ - أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأن من عجز عن العمل لعذر ينال ثواب ما كان يقوم به لو صدق النية فى ذلك.
٥ - إن الإخلاص يرفع درجة العبد ويعلى من قدر العمل ولذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن...﴾[1] الآية قال: كانت المرأة إذا أتت النبى ﷺ خلفها بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت من رغبة بأرض عن أرض وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًا لله ورسوله.

---

(١) سورة الحجرات: ١٠.

ويقاس على ذلك سائر الأعمال والأقوال من أصغرها إلى أعظمها فقد قال عبد الله بن عمرو: يارسول الله أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال: «إن قاتلت صابراً محتسبًا بعثك الله صابراً محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثراً بعثك الله مرائيًا مكاثراً، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله بتلك الحال».

٦ - أن طاعة الرسول من طاعة الله، وأنه ﷺ لا ينطق إلا بوحى من الله.

٧ - بلاغته ﷺ.

* * *

من جوامع كلمه ﷺ

٢ - الاشتغال بالأمور الضرورية

نعرف أن من سمات بلاغته ﷺ : «جوامع الكلم» وهى الألفاظ القليلة التى تتضمن بوضعها وتركيبها معانى كثيرة، وقد ذكر ذلك ﷺ فى مجال حديثه عن بعض ما فضله الله به على غيره من الأنبياء ومنها: «وأوتيت جوامع الكلم» وقال الجاحظ فى وصف ذلك: «هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف».

ومن جوامع كلمه ﷺ ما رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» والحديث الشريف على وجازة ألفاظه وقلتها يعد قاعدة من قواعد الدين، والأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه أخلاق الإنسان فى علاقته بربه وفى علاقته بالناس أجمعين، وهو اشتغاله بما يفيده فى دينه ودنياه وبعده عما لا يفيده بل يجلب الضر له فيهما.

وأهل العلم يعدون هذا الحديث من أهم الأحاديث فى قواعد الأخلاق وأصول الأدب على الرغم من قلة عدد حروفه، ويشترك معه فى ذلك الحكم أحاديث أخرى منها قوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقوله لمن طلب منه الوصية والنصيحة «لا تغضب».

والتعبير «بمن» فى قوله ﷺ : «من حسن إسلام. . .» يفيد أن تطبيق المسلم لهذه القاعدة وتأدبه بهذا الأدب إقامة وتطبيق لبعض مظاهر الإسلام حيث إن «من» تفيد التبعيض.

وإيثار «الإسلام» علـى الإيمان، لأن أخذ المسلم بما يعنـيه فى قوله وفعله وتركـه لما لا يعنيه فى قولـه وفعله أمر ظاهرى والإسلام يـتعلق بالظاهر، أما الإيمان فمحله القلب.

وقولـه: «ما لا يعـنيـه» أى ما لا تعـلق له بـدينـه وما لا يتـصل باستقـامته مع الله، ولا يراد بها مـا لا يتفق مع هواه، لأن الـنفس قد تهوى كثيراً من المشتهيات وتتعلق بكثير من المحرمات.

والقول الجامع فيـما لا يعنى المرء أنه: ما لا يهم الإنـسان فى دينه ودنياه من لغو القول وعبث الفعل.

وإن كان واضحًا ان ترك الإنسان لما لا يعينه يتعلق بكل من الأقوال والأفعال إلا أن كثيراً من الناس يستشهدون بالحديث ويذكرونه فى مقام بعد الإنـسان عن الأقوال الـفاسدة وحفـظ لسانه مـن الكذب والغـيبة والنميمة وسقط الحديث وغيرهـا، غير أن الترك يتوجه بوضوح إلى ما لا يعنى الإنسان مـن القول والفعل ولا غرو فالكلام مـن فعل الإنسان وهو عمل من أعمال الـلسان وصدق الله إذ يقول : ﴿ما يلفظ من قول إلا لديـه رقيب عتـيد﴾[1] وقوله: ﴿أم يحـسبـون أنا لا نـسـمع سـرهـم ونجواهم... يكتبون﴾[2] وقوله ﷺ لمعاذ: «أمسك عـليك هذا» فلما قال له معاذ: أو نـؤاخذ بما نتكلم به؟ قال ﷺ : «وهـل يكب الناس فى النارعلى وجوههم أو على مناخـرهم إلا حصائد ألسنتهم»، وهناك رواية أخرى للحديث «إن من حسن كلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه» واشتغال الإنسان بما يعنيه وتركه لما لا يعنيه يرفعه أعلى الدرجات ويهيئ له أرفع المنازل فى الـدين والدنيا، لقد مر رجل يومًا عـلى لقمان وهو

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) سورة الزخرف: ٨٠.

يجلس مع جمع كثير يعلمهم الحكمة فقال له: ألست عبد بنى فلان؟ قال: بلى، قال: ألست الذى كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وصدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنينى.

وأراد فضولى آخر أن يعيب الأحنف بن قيس، وأن ينتقصه فقال له: بم سدت قومك، فقال الأحنف فى هدوء: : بتركى من أمرك ما لا يعنينى، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك.

وإنما آثر ﷺ جانب الترك على جانب الفعل، لأن الترك لا يكلف الإنسان شيئًا، فما عليه إذا ما أراد الخير لنفسه إلا أن يتجنب ما لا يعنيه أما الأفعال فهى تحصيل وإنشاء، وليس كل الناس قادرًا على البناء ففى كل من ترك ما لا يعنى والاشتغال بما يعنى خير للإنسان غير أن ترك ما لا يعنى لما كان لا يكلف صاحبه عملاً ولا جهدًا أكثر من البعد عنه وتجنبه آثره على الفعل.

وهناك سر آخر وهو أن الإنسان إذا تجنب ما لا يعنيه انحصر همه وتركز جهده فيما يعنيه فأتقنه وأجاد ضبطه وأحكم صنعه، وذلك من أهم أسباب التقدم والتفوق، فإن الانقطاع للعمل والتفرغ عليه سر النجاح فيه والنجاح يدعو إلى النجاح، ومن جنى ثمرة عمله أوشك أن يمتلئ قوة وإقدامًا وعزمًا وحزمًا، وهنالك يدهش الألباب، ويأتى بالعجب العجاب[1].

* * *

(١) من مقال للشيخ طه الساكت بمجلة الأزهر.

من جوامع كلمه ﷺ

٣ - المؤمن فى هجرة دائمة

ذكرنا فى الكلام السابق حول حديث: «إنما الأعمال بالنيات.. أن الهجرة قد يراد بها: الهجرة الحقيقية من مكة إلى المدينة وقد يراد بها: ما هو أعم من ذلك وهو: الانتقال من المعاصى والآثام وفعل السيئات إلى فعل الطاعات والخيرات والأعمال الصالحة، ويؤكد ذلك المعنى العام هذا الحديث الذى يرويه البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

سبب الحديث:

قيل فى سبب ورود ذلك الحديث: إنه بعد أن انتهت قصة الهجرة ودخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وقال الرسول ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» حزن كثير من المسلمين الذين لم يتمكنوا من المشاركة فى الهجرة ونيل ثواب المهاجرين، فطيب الرسول خاطرهم بقوله المذكور الذى يوضح فيه أن المسلم دائم الهجرة إلى الله فى محاربته نفسه وتغلبه على شهواته وانتصاره على الشيطان وقيل: إن الرسول ﷺ قال الحديث السابق ليعلم جميع المسلمين أنهم فى هجرة دائمة بفعل الطاعات وترك المعاصى وحتى لا يتكل الذين هاجروا بصفة خاصة على ما نالوه من فضل الله وثوابه ويقعدوا عن الجهاد وفعل الطاعات.

من صور البلاغة فى الحديث:

فى قوله ﷺ: «المسلم من سلم.. ويده» قصر بتعريف الطرفين: المسند إليه والمسند فكل منهما معرفة المسند إليه وهو المسلم

معرف بأل والمسند (من) إسم موصول. وهو من قصر الموصوف على الصفة أى: تخصيص المسلم بعدم إيذاء المسلمين باليد واللسان وحيث إن الإسلام أعم من ذلك إذ أنه تحقيق الأركان الخمسة من النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، فإن القصر لا يكون حقيقيًا وإنما هو إضافى أى: بقصر الإسلام على من لا يؤذى المسلمين بلسانه وقلبه دون من يؤذيهم بلسانه وقلبه، وذلك هو معنى تفسير العلماء للمسلم فى الحديث بأنه: المسلم الكامل.

وبهذا التفسير، فإن كل جماعة من جماعات المسلمين تعرف قدرها: المسلمون الذين يأتون بأركان الإسلام الخمسة ويسلم الناس من أذاهم وهم أهل الإسلام الكامل.

والذين يأتون بأركان الإسلام الخمسة ويؤذون الناس بألسنتهم وأيديهم، حيث لم يفيدوا من شعائر الإسلام ولم تثمر فيهم شرائعه وهؤلاء إسلامهم ناقص[1]. والذين يسلم الناس من أذاهم باللسان واليد لكنهم لا يصلون ولا يزكون ولا يصومون ولا يحجون بيت الله، وفقط يكتفون بالنطق بالشهادتين ويدعون أنهم ماداموا لا يؤذون أحدًا فإنهم على حق، وهم فى الحقيقة مقصرون غاية التقصير[2]، فجاء هذا

---

(١) وهؤلاء ينطبق عليهم ما ينطبق على المرأة التى ذكرت للرسول ﷺ بأنها تصلى وتصوم وتقوم الليل، لكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال ﷺ لا خير فيها، هى من أهل النار.

(٢) وعلى ذلك لا يصح أن يتخذ هذا الحديث تكأه للذين يفرطون فى تأدية أركان الإسلام ويدعون أنهم فى منزلة طيبة من الإسلام بحسن أخلاقهم واستقامتهم فى تعاملهم مع الناس، لأن الإسلام عباده ومعامله، ولا تمام له إلا باجتماع شطريه واكتمال ركنيه، ولئن اكتفى ﷺ فى هذا الحديث عن المسلم بالنص على سلامة المسلمين من لسانه ويده، فقد ذكر فى أحاديث أخرى بقية جوانب=

الحديث بتركيبه السابق ليضع المعنى الصحيح والكامل للإسلام، ومن خلاله يعرف كل مسلم قدره ويقف على حقيقة نفسه.

والحديث كما نرى قد حدد المعنى الصحيح للإسلام فى كلمات معدودة، وبذلك يعد من أوضح النماذج على جوامع كلمه ﷺ، حيث حصر جميع المضار والأثام والمنكرات التى تقع بين بعض الناس وبعضهم الآخر والتى ينبغى أن يكون المسلم بمنأى عنها فى كلمتين هما: لسانه ويده.

والتعبير بلفظ «المسلم» دون المسلمة من باب التغليب والإيجاز حيث تشمل جميع آداب الإسلام وأحكامه المسلمة كما تشمل المسلم.

وقوله: «من سلم المسلمون..» لا يعنى أن المسلمين فقط هم الذين ينجون من أذى المسلم، بل يشمل ذلك غير المسلمين وبخاصة أهل الكتاب الذين يدعو الإسلام إلى حسن معاملتهم إلا إذا وقع منهم ظلم أو عدوان فالتقييد بالمسلمين لإفادة أن المسلم من شأنه أن يعامل جميع الناس بالحسنى والمعروف وبصفة خاصة من تربطه بهم أخوة الإسلام.

والاقتصار على اللسان واليد لأن معظم مظاهر الظلم والعدوان تحدث بوساطتهما وإن كان يقع بعض ذلك بغيرهما كأكل أموال الناس بالباطل والاستيلاء على أراضى الغير وغير ذلك.

وقوله من «لسانه» أى من صور الإيذاء التى يكون اللسان سبيلاً إليها كالكذب والفتنة والغيبة والنميمة والسب والقذف وغيرها، وذلك

= الإسلام ويفيد الاكتفاء هنا بذلك: الإشعار بأهمية هذا الجانب وانه من الإسلام بمثابة الثمرة من الشجرة لكن لا يراد أنه وحده الذى يتمثل فيه الإسلام، وذلك كتوضيحه ﷺ أهمية الوقوف بعرفة من الحج فى قوله ﷺ: «الحج عرفة» بمعنى أن الوقوف بها من أهم واظهر أعمال الحج وليس بمعنى أن الحج فقط فى الوقوف بعرفة وترك بقية مناسكه من الطواف والسعى والحلق أو التقصير ورمى الجمرات والبيت بمنى وغيرها.

مجاز مرسل علاقته الآلية كقوله تعالى: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾[١] أي ذكرًا جميلاً وثناء حسنًا، وقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾[٢] أي بلغة قومه، وتقديم اللسان على اليد، لأن مظاهر الأذى باللسان أكثر من مظاهر الأذى باليد[٣]. ولأن اللسان ينشأ عنه معظم مظاهر الأذى التي تقع من غيره من الجوارح[٤].

وقوله: «**ويده**» أي من صور الأذى التي تنشأ باليد وتقع بها، وذلك أيضًا مجاز مرسل علاقته الآلية، واليد تستعمل بمعنى النعمة لأنها تقدم باليد كقولك: لفلان على يد لا أنكرها وكما في قول الشاعر:

مازلت تتبع ما تولى يدا بيد حتى ظننت حياتي من أياديكا

أي من نعمك علي.

كما تستعمل بمعنى القدرة لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد حيث يتحقق بها الضرب وغيره وذلك كقولهم: يده مبسوطة على البلد وكقولهم في صفة راعي الإبل: إن له عليها إصبعًا - أي أثرًا واضحًا في رعايته لها وفي أبعاد الأذى عنها، والاهتمام بما يصلحها[٥].

---

(١) سورة الشعراء: ٨٤.   (٢) سورة إبراهيم: ٥.

(٣) ولأن الأذى باللسان أكثر عمومًا من الأذى باليد، حيث يشمل الموتى وغير الموجودين، بخلاف الأذى باليد فإنه لا يكون إلا للموجودين.

(٤) ويشير إلى ذلك قوله ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» وما ورد في حديث له ﷺ من أنه ما من يوم يصبح فيه الناس إلا تقول جميع الأعضاء للسان: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت إعوججنا.

(٥) ولا يدخل في الأذى المنهي عنه: إقامة الحدود، وتعزير الظالمين ومعاقبتهم بأنواع التعزير المختلفة لأن ذلك بحق، أما المنهي عنه من الأذى، فإنه ما يكون بغير حق.

وقوله ﷺ : «والمهاجر من هجر . . . عنه». إفادة لدوام الهجرة واستمرارها فى البعد عن المعاصى ومخالفة دواعى النفس وأهوائها وفى الفرار من الفتن، وهجر أماكن الظلمة والمفسدين وفى ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً....**﴾ [الآيات: ٩٨ : ١٠٠ من سورة النساء]. وقد تكون الهجرة أيضًا بالضرب فى الأرض، والمشى فى مناكبها سعيًا وراء الرزق، أو طلبًا للعلم، وأداء لفريضة الحج، وجهادًا فى سبيل الله ودفاعًا عن دينه.

هذا ويمكن استخدام الحديث الشريف والانتفاع به فى توجيه وإرشاد المفسدين الذين يؤذون الناس بألسنتهم وأيديهم، وذلك على سبيل التعريض حيث يلقى الكلام على جميع الحاضرين والمستمعين ويكونون هم المقصودين به فلا يكون لهم سبيل إلى المؤاخذة والمراجعة.

وهكذا يشتمل الحديث من فنون البلاغة على: الإيجاز، القصر، المجاز المرسل، التقديم، التعريض.

كما يرشدنا إلى أن من أهم صفات المسلم: إحترامه للناس وكف الأذى عنهم، واجتناب السيئات وفعل الطاعات.

* * *

الانفاق والبخل

استخدم ﷺ فى كلامـه كثيراً من صور التشبيه والـتمثيل وذلك لتوضيح كـلامه وتقريبه من الإفهام، حـيث إن التشبيه يجـعل المعقول محسـوسًا والمعنـوى ملموسًا، والخـفى جليًا، والمـبهم واضحـًا فتزداد النفس ثقة بالمعنـى وأنسابه واطمئنانًا إليه فيشتد تعلـقها به ويقوى تمكنه ولذلك قال علماء البلاغة: إن التشبيـه بجمع صفات ثلاثة هى: المبالغة والبيان والإيجاز.

الحديث:

روى البخارى عن رسـول الله ﷺ : «مثل البخيل والمنـفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو عن أثره، وأما البخـيل فلا يريد أن ينـفق شيئًا إلا لزقت كـل حلقة مكانـها فهو يوسعها ولا تتسع».

يصور ﷺ فـى هذا الحديث حـالة كل من المنـفق والبخـيل فى تغلب الأول عـلى ما فى نفسه مـن شح وبخل وانفاقـه المال فى وجوه الانفاق المختلـفة والمشروعة فكان إنفـاقه خيراً وبركة ونماء له فـى نفسه وفى صحته وفى ماله وفى عمـله وفى أولاده وفى قربه من ربه، وعدم تمكن الثانى من التغلب على ما فـى نفسه من شح فبخل بالمال وضن به فعاد ذلك البخـل عليه بأوخم العواقب فى نفـسه وفى ماله وفى أولاده وفى أبعاده عن الله وعن الناس، هذه صورة المـشبه أما صورة المشبه به فإنها تتـمثل فى رجلين ارتدى كل منـهما جبة من حديد ليـقى بها كل منهما جسمه ونفسه من خطـر الأعداء وسهام المحاربين، فحققت الجبة الهدف منها بالـنسبة للأول إذ كانت ستراً ونجاة وأمنًا ولـم تحقق هدفها

بالنسبة للثانى وكانت عبئًا وثقلاً وحملاً عليه ولم تمكنه من النجاة والأمن، ووجه الشبه الذى يشترك فيه كل من المشبه والمشبه به هو: كون الشئ الواحد نعمة فى حالة ونقمة فى حالة أخرى، وهذا الوجه هيئة مجتمعة من أمور وليس أمرًا واحدًا ولذلك يعرف هذا التشبيه بالتشبيه التمثيلى.

وقبل أن نأخذ فى النظر فى أجزاء هذا التشبيه فإننا نذكر بعض ما ورد فى القرآن والسنة عن فضل الإنفاق وذم البخل.

الشح غريزة فى النفس البشرية:

ومن الغرائز التى فطر الله الإنسان عليها حبه للمال وتعلقه به وحرصه عليه كغيره من صور الزينة والفتنة فى قوله تعالى: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾[١].

وقال سبحانه فى طبع الإنسان على حب «المال»: ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾[٢] وقال: ﴿**وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حبًا جمًا**﴾[٣] وقال فى بيان تمكن الشح من نفس الإنسان: ﴿**وأحضرت الأنفس الشح..**﴾[٤]، أى جعلت حاضرة عنده أو جعل عندها كأنها مطبوعة عليه ولا تنفك عنه، وقوله تعالى: ﴿**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورًا**﴾[٥] فيقول الزمخشرى: لقد وصف الله بنى الإنسان بأنهم لو ملكوا خزائن الله التى لا نهاية لها لبخلوا بها عن إعطاء الناس حقوقهم ليس خوفًا من

---

(١) سورة آل عمران: ١٤. (٢) سورة العاديات: ٨.
(٣) سورة الفجر: ١٩، ٢٠. (٤) سورة النساء: ١٢٨.
(٥) سورة الكهف: ١٠٠.

الفقـر وإنما خشيـة الإنفاق، حيث تمـكن الشح من نـفوسهم وهـيمن عليها.

وقوله تعالى: **﴿أم لهـم نصيب مـن الملـك فإذًا لا يـؤتون الـناس نقيراً﴾**(١) أى لو أن لهـم نصيبًا من مـلك الله لما أعطوا أحدًا شـيئًا ولا مقدار نقير.

ولما كان الشح غريزة طبع الله عليها الإنسان فقد حدد له كثيراً من السبـل التى ينجح إذا اتـبعها فى التـغعلب علـى هذه الغريزة المهـلكة وتحويلها إلى صفة تجلب له النفع والخير من ذلك:

١ - تنبيه الله عباده إلى أن الشح ملتـصق بنفوسهم وأن الكيس هو الذى يقى نفسه ذلك الشح وذلك فى قوه تعالى: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المـفلحون﴾**(٢) ومما لا شـك فيه أن مـحاربـة هوى النـفس والتغلب علـى أهوائها أقوى أنواع الجهاد كمـا ذكر ﷺ عند عودته من إحدى الغزوات قوله: «رجعنا مـن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر يارسول الله؟ قال: جهاد النفس».

٢ - تنبيه الله عباده إلى أن ما فى أيديهم من أموال هم فى الحقيقة حفاظ لـه وحراس عليه، والمـال فى الحقيقة مـال الله يعطيه مـن يشاء فينبغى أن ينفق الإنسان من مال الله الذى جعله خليفة عليه قال تعالى: **﴿وأنفقوا مما جعلكم مـستخلفين فيه...﴾**(٣) الآية، وقوله: **﴿وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض...﴾** الآية(٤).

٣ - تذكـير الإنسان فـى غير موطـن بأن الإنفاق مـن المال ينمـيه ويطهره ويـكسبه البركة ويـحقق لصاحبـه الخير الوفير فى نـفسه وولده وأهله وفوزه بالجنة ونجاته مـن النار كقوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون**

(١) سورة النساء: ٥٣. (٢) سور الحشر: ٩.
(٣) سورة الحديد: ٧. (٤) سورة الحديد: ١٠.

أموالهم فـى سبيل الله...﴾ الآيات[١]. وقوله: ﴿ليس عليك هداهم.. وأنتم ظالمون﴾[٢] وقولـه ﷺ: «حصـنوا أمـوالكـم بالـزكاة وداووا مرضاكم بالصـدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعـاء والتضرع» وقوله: «ما من يوم يصـبح فيه العباد إلا وينـزل ملكان يقول أحدهمـا: اللهم اعط منفقًا خلفًا، ويقول الثانى: اللهم أعط ممسكًا تلفًا».

٤ - حذر الله النـاس من البخـل ومن سوء عواقـبه فى كثـير من الآيات كقوله تعالى: ﴿.. ومن يبخـل فإنما يبخل عـن نفسه﴾[٣]، كما حذر الرسول ﷺ من آثار البخل المدمرة وعـواقبه السيئة على الأفراد والجماعـات، فقال: «شر مـا فى الرجل: شُـحٌ هالع، وجُبـنٌ خالع» وقال: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لـدينه» وقال ﷺ: «خصلـتان لا تجتمعان فـى مؤمن: البخل وسوء الخلق» وقال فيما رواه مـسلم عن جابر: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهـم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم».

وقال فيما رواه الحاكم وأبو داود: «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلـكم بالشح، أمرهـم بالقطيعـة فقطعوا، وأمرهـم بالبخل فبـخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

تحليل صورة التشبيه:

وقد عرفنـا أن الحديث الشريف ورد فـى صورة تشبيه تـتكون من مشبه ومشبه بـه ووجه شبه بينهما. وعرفنا أن وجه الـشبه الذى يشترك فيه الـطرفان: المشبه والمـشبه به هو: أن الشـئ الواحد يكون نعـمة فى حالة ونقمة فى حالة ثانية.

---

(١) سورة البقرة: ٢٦١م، وما بعدها. (٢) سورة البقرة: ٢٧٢.

(٣) سورة محمد: الآية الأخيرة.

فلننظر إذا فى كيفية تحقق هذا الوجه فى كل من الطرفين:

١ – إن هذا الشئ الواحد فى جانب المشبه هو المال الذى يجتمع عليه كل من المنفق والبخيل، وهو الجبة من الحديد التى يشترك الرجلان فى ارتدائها والاحتماء بها فى المشبه به.

٢ – أن نتيجة هذا الشئ الواحد تختلف من حالة لأخرى فالمال الذى تغلب المنفق على حب نفسه له بالانفاق منه كان له نعمة وستراً وخيراً فى نفسه وأهله وولده وعمله وفى علاقته بربه وفوزه بالجنة ونجاته من النار ويقابله فى المشبه به صورة الجبة وقد غطت صاحبها وسترت جميع أجزاء جسمه ومنعت الأعداء من تعقب آثاره، أما البخيل الذى لم يتمكن من التغلب على شح نفسه فبخل بماله فكان بخله مفسدة له ولماله ولأولاده وإبعاداً له من الله ومن الناس وطرداً له من رحمة الله ويقابل ذلك فى المشبه به صورة الجبة التى صارت عبئاً لصاحبها ومجلبة لهلاكه وثقلاً عليه وقد لصقت كل حلقة مكانها، فلم تحم جسده من السهام، وشلت يديه وسائر أعضاء جسمه عن الحركة ومحاولة النجاة[1]. وهكذا يكون البخل بالأموال وعدم الانفاق منها وبالاً ودماراً لأصحابها فى الدنيا والآخرة.

ومن التأمل فى ألفاظ الحديث يبدو لنا:

---

(١) فلا هي سترت جسمه، ولا أبقته طليق اليدين يستطيع بعض المدافعة عن نفسه فكان ضررها الذي جاءت به يفوق نفعها الذي كان ينتظر، فلو لم يلبسها لكان علي الأقل قادراً علي الدفاع عن نفسه بيديه الطليقتين، وقد زاد في تصوير ذلك بما شغله من شأنها فهو يريد أن يوسعها فلا تتسع، فهو منها في علاج ومشاغل، بينما صاحبه قد استكمل بها الستر، وأمن الخطر، وأطلقت منه اليدان، وسهل باتساعها انزلاقها وجمعها فنشرها كيفما أراد.

دراسة أدبية لأحاديث نبوية مختارة، د. كامل سلامه الترمس.

أن تقديم البخيل على المنفق فـى قوله: «مثل البخيل والمنفق...» إشعار بحـب البخيل للمال وحـرصه على إكتنازه وأنه فـى ذلك أسبق للمنفق، أما تـقديم المنفق على البخيل فى قولـه: «فأما المنفق..» فإن الحديث حيـنئذ عما يصـنعه كل من المنـفق والبخيل بمـاله، وحيث أن المنفق ينفق من ماله قبل البخيل ولا يبقى المال كثيراً فى يده بدون انفاق لذلك وجب البدء به مراعاة لهذه الحالة، بيـنما تقدم البخيل على المنفق فى العبارة السابـقة لأنها حالة تتحدث عن موقف كل مـنهما من جمع المال فناسب أن يبدأ بالبخيل الذى هو أكثر للمال جمعًا.

وهكذا يعـطينا هذا التـشبيه صورة تبـلغ الغاية فى الـوضوح لهذه الحالة المعنـوية والنفسية وهى حالـة موقف كل من البخيـل والمنفق من شح النـفس وحبها لـلمال ونجاح المنـفق فى التغـلب على هوى نـفسه وفوزه بالـدنيا والآخرة وإخـفاق البخـيل فى ذلك وعـودته بالبـوار فى الدنيا والشقاء فى الآخرة.

وهكذا التشبيه يزيد المعانى وضوحًـا، ويجلوها روعة ويكسبها بهاء وجلالاً.

* * *

من صور التشبيه فى كلامه ﷺ

الحلال والحرام والمشتبه فيه

لم يدع الإسلام شيئًا يحقق الخير والفلاح للمسلم إلا دله عليه وأرشده إليه ولا شيئًا يجلب له الضرر والإثم إلا حذره منه، وفى الحديث المقبل يوضح لنا ﷺ أن كل الأمور التى يتعامل معها المسلم فى حياته بالقول أو بالفعل لا تتجاوز مظاهر ثلاثة: حلال واضح، وحرام واضح، ومشتبه فيه، وإن الحلال الواضح يؤدى ويصنعَ بلا جدال، أما الحرام الواضح فإنه يتجنب ويتقى بلا جدال أيضًا، وما يشتبه فيه فلا يدرى إن كان حلالاً فيصنع أو حرامًا فيتقى من الأفضل للمسلم أن يتجنبه وأن يبتعد عنه حذرًا من أن يشده ذلك إلى الوقوع فى الحرام، ولكى يؤكد ﷺ هذا المعنى ويزيده وضوحًا صوره بصورة يعرفها جميع الناس وهى صورة الراعى الذى يقوم على رعاية غنمه فى منطقة يوجد فيها زرع يمتلكه الناس، حيث إن الغنم بمرور الوقت لابد أن تنزل وتأكل من زرع الغير مهما كان شديدًا لحراسة لها، وبذلك تعرضه للإثم وتوقعه فى الحرج، لذا كان الأفضل له أن يلتمس لغنمه مكانًا ترعى فيه بعيدًا عن أى زرع مملوك للناس، وكذلك المسلم فى كل ما يقول ويفعل ينبغى عليه أن يبتعد عن الأمور المشتبه فيها حتى لا ينتهى به الأمر إلى الوقوع فى الحرام.

الحديث:

عن أبى عبد الله النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى

حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». رواه البخارى ومسلم.

راوى الحديث:

هو أول مولود للأنصار فى الإسلام، روى الحديث وهو صغير، وتولى إمارة الكوفة وقضاء دمشق وحمص، وكان من أخطب الناس، وقتل غيلة بالشام بقرية من قرى حمص وله أربع وستون سنة.

الأسرار اللغوية:

«رضى الله عنهما» تثنية الضمير ليشمل الدعاء برضا الله للراوى ووالده حيث كان والده أيضًا من صحابة رسول الله ﷺ «سمعت رسول الله ﷺ يقول:» يفيد التعبير «بسمعت» أن الراوى سمع هذا الكلام بنفسه من الرسول ﷺ ولم يسمعه من شخص آخر يروى عن الرسول، وذلك يؤكد التقاء الراوى بالرسول ﷺ وحضوره مجالسه، أى أنه صحابى.

«إن الحلال بين وإن الحرام بين» يفيد استخدام «إن» وهى للتأكيد وتكرارها أهمية الأمر المتحدث عنه وعظيم خطره وإن مصير الناس فى فوزهم بالجنة ونجاتهم من النار مرتبط به.

«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» جملة شرطية تتكون من: أداة شرط (من)، وفعل شرط (اتقى) وجواب شرط «فقد استبرأ» واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة فعلية مبدوءة «بقد» ومعنى «اتقى» ابتعد وتجنب - «واستبرأ» ضمن البراءة وهى الطهارة والنقاء «لعرضه» أى لأصله ونسبه، فبراءة العرض يكنى بها عن شرف النسب وعراقة الأصل.

«كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الراعى: من

الرعى وهو الاهتمـام والعناية، وقد استعملت هذه الـكلمة فى الأصل لراعى الغنم أو الإبل الذى يتولى رعايتـها ويوفر لها كل ما يصونها من الحراسـة والأكل والشرب وغـير ذلك، وتسـتعمل عـلى سبيـل المجاز والتوسـع فى كل من أسند إلـيه أمر من الأمور ويـنبغى عليـه أن يقوم برعـايته علـى الوجه الأكـمل، ومن ذلـك قوله ﷺ : «كلـكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. .» الحديث.

و «الحمى» كل شئ يمـلكه الإنسان ويجب عليه حـمايته، و،يراد به هنا الزرع المملوك للغير.

«يوشك أن يرتع فـيه» أى يقرب من أن تنزل أغنامه فـتأكل منه أو تتلفه.

«ألا وإن فى الجسـد مضـغة. .» ألا : أداة تـنبيـه وفائدتـها إيـقاظ السامعين وإثارة مشاعرهم لمعرفة الكلام المقبل لأهميته، والمضغة: قطعة اللحم التى تمضغ.

الأسرار البلاغية:

«ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى. . .» يراد بالوقوع فى المشـتبهات: فعـل الأمور المشتبـه فيها، وهى الـتى لا يتأكد حـلها أوحرمتهـا لعدم وجود نص شرعى يقـطع بذلك كالتدخيـن وغيره من الأمور التى لم يرد فـى تحليلها أو تحريمها نـص شرعى واضح، كذلك يراد بالوقوع فى الحرام: ارتكاب ما ثبت تحريمه بنص شرعى كالكذب وقول الزور وشرب الخمر والربا والسرقة وقـتل النفس بغير حق وعقوق الوالديـن وغيرها والتـعبير «بوقـع» يفيد الـتحذير من الأمـور المحرمة والمشتبه فيها لعواقبها الوخيمة وآثارها المهلكة، بالمواقع المهلكة والأماكن الخطـرة التى إذا اقتـرب الإنسان منـها لقـى حتفه وذلـك على سبـيل

الاستعارة المكنية ثم حذف المشبه به وأ بقى المشبه وصفة من صفاته وهو الوقوع.

يسأل فيقال: كيف يكون الذى يفعل الشبهة وهى التى لم يتحدد حلها ولا حرمتها مرتكبًا للحرام حتى يقول الرسول عنه: «.. وقع فى الحرام»؟.

ويجاب بأن ذلك يحتمل أمرين: أن يكون بفعله لهذه الشبهة قد وقع فى الحرام وقد كان يظن أنه ليس حرامًا.

الثانى: أن يكون المعنى: قد أوشك أو اقترب من الوقوع فى الحرام كما يقال: «المعاصى بريد الكفر» أى سبيل إليه، لأن النفس إذا وقعت فى المخالفة تدرجت من مفسدة إلى أكبر منها، وفى الحديث: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فيقطع يده» رواه الشيخان. أى يتدرج من سرقة البيضة والحبل إلى سرقة ما يساوى نصابًا فتقطع يده.

«.. كالراعى يرعى حول الحمى يوش أن يرتع فيه» من خلال كلامنا الماضى حول المقصود من ذلك التشبيه يتبين لنا أنه تشبيه تمثيلى وإن كلاً من المشبه والمشبه به ووجه الشبه فيه هيئة مأخوذة من أمور، فالمشبه هو فعل المشتبهات التى تتدرج بصاحبها إلى ارتكاب المحرمات والمشبه به هو: هيئة الراعى الذى أطلق غنمه ترعى حول زرع مملوك للناس، ومع مرور الوقت وبسبب خضرة الزرع وجماله لم يتمكن الراعى من الحيلولة بين غنمه وبين النزول فى الزرع لأكله وإتلافه موقعة به فى الإثم والحرج ووجه الشبه هو: الحذر من الإقدام على أى شئ يؤدى إلى نهاية سيئة.

«ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه» أى كما أن على كل ملك من الملوك واجب حماية مملكته وتوفير الأمن والأمان

لكل من فيها ورد بغى الظالمين والمعتدين عليها فإن لرب العالمين وملك الملوك حمى لا يجوز الاقتراب منه وهو كل ما حرمه، ونرى أن فى العبارة تشبيهًا بدون أن يذكر فيها أى شئ يدل على التشبيه بل يفهم التشبيه من مضمون الكلام وهو الذى يعرف بالتشبيه الضمنى.

«ألا وإن فى الجسد مضغة.. ألا وهى القلب» بعد أن وضح لنا ﷺ فيما مضى أن الحلال واضح ونفعله بلا حرج، وأن الحرام واضح ونبتعد عنه، وأن الشبهة ينبغى تجنبها لأنها تجرنا إلى الحرام ختم كلامه بهذه العبارة التى يقرر فيها الأداة التى تصدر عنها أعمال المسلم والتى تحدد سلوكه فى فعل الحلال أو الوقوع فى الحرام والشبه وهى القلب، ولأهمية هذه الأداة فى توجيه سلوك الإنسان وتحديد مصيره تضمنت العبارة واشتملت على ما يفيد ذلك فى أداة التنبيه «ألا» وتكرارها، وفى التضاد بين «صلحت وفسدت» وهذا التضاد يشوق الذهن ويجعله يتلقى ما يوجه إليه برعاية واهتمام فيستقر فيه المعنى ويتمكن ويعرف ذلك بالطباق، وفى الإيضاح بعد الإبهام فى قوله: «ألا وهى القلب»، فإن ذكر المعنى أولاً مبهمًا يشد انتباه السامع ويثير مشاعره، فإذا ما جاء واضحًا بعد ذلك استقر وتمكن من فؤاده، وترتبط هذه العبارة بما قبلها ارتباط السبب بالمسبب لأن القلب التقى النقى يوجه صاحبه إلى قول الحلال وفعل الحلال، والقلب الذى امتلأ بالضغائن والمفاسد يدفع صاحبه إلى ارتكاب المحرمات وفعل المشتبهات وصلاح القلب بسلامته من الأمراض الباطنة كالغل والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسخرية والرياء والمكر والحرص والطمع وعدم الرضا بما قدر الله وهذه كلها أمراض دواؤها الاشتغال الدائم بذكر الله وأن يكون لسان المؤمن دائمًا رطبًا بذكر الله وصدق الرسول ﷺ إذ يقول: «إن القلوب

لتصدأ كما يصدأ الحديد وإن لها جلاء قيل: وما ذلك يارسول الله؟ قال: ذكر الله.

من آثار الحلال والحرام:

إذا كان رزق العبد من حلال بارك الله له فيه وفى أولاده وفى كل من يطعم من هذا الرزق، وتقبل منه صدقاته، ةواستجاب دعاءه كما ذكر ﷺ لمن سأله أن يكون مستجاب الدعاء فقال له «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» أما إذا كان رزقه من حرام فإنه يطرد من رحمة الله ولا يبارك الله فى كل من يطعم منه، مصداقا لقوله ﷺ: «كل شحم نبت من سحت فالنار أولى به» ولا يقبل الله الصدقة منه مصداقا لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون منه ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد﴾[1] وقال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا».

ويرشدنا الحديث الشريف إلى ما يلى:

١ - يجب على كل مسلم أن يعرف الحلال ويقبل عليه وأن يعرف الحرام ويبتعد عنه، أما الشبهة فمن الأفضل البعد عنها.

٢ - أن القلب أهم عضو فى الإنسان وإنه موطن الإيمان والكفر وسبب الصلاح والفساد.

٣ - كل إنسان أمين ومسئول أمام الله على ما استرعاه، وأن الحكام مسؤلون أمام الله عن حسن رعايتهم لشعوبهم.

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٧.

(٣)
الاجتهاد فى نفى الشبهات

عرفنا فى الحديث الماضى أن المسلم الذى يريد الأمن والسلامة له ولأهله ولكل من يعولهم والفوز بالجنة والنجاة من النار عليه أن يتحرى الحلال فى قوله وفعله وأن يحذر الحرام فى قوله وفعله وأن يتجنب الشبهات حتى لا تجره إلى الوقوع فى الحرام.

ومن آداب الإسلام أيضًا لاتباعه التى تهىء لهم الأمن وتوفر لهم السلامة والاطمئنان وتحقق النفع بهم والاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم أن يجتهد المسلم فى نفى الشبهة عن نفسه إذا ما نسبت إليه شبهة هو منها برئ، وإذا كان ذلك أدبًا ينبغى لكل مسلم أن يؤدب نفسه به وأن يربى نفسه عليه، فإنه بالنسبة لكل من يرعى عملاً من الأعمال ويتحمل مسئولية من المسئوليات كالأب فى بيته والأم مع أولادها والمدرس مع تلامذته والإمام مع من يؤمهم والقائد مع جنوده وغيرهم من كل من يلى أمرًا من الأمور يصبح أمرًا من الأمور شبه واجب وهو أن يجتهد كل منهم فى نفى ودفع الشبهة عن نفسه كما يجتهد فى تجنب الشبهات حتى تتحقق بهم القدوة ويكمل النفع، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم» كما علمنا ذلك بصورة عملية فى هذا الحديث الذى يفيد أن صفية أم المؤمنين رضى الله عنها زوجته ﷺ أقبلت تزوره فى معتكفه فى العشر الأخير من رمضان فخرج ليعيدها حيث كان بعض الناس يمرون فى تلك اللحظة فاستوقفهم الرسول ﷺ ووضح لهم أن التى كانت معه «صفية» فتعجبوا من صنع الرسول ذلك بدون أن يحدث شئ منهم فبين لهم ﷺ أنه فعل ذلك حتى يقطع

طريق الشيطان إلى عقولهم.

الحديث:

عن الزهرى قال: أخبرنى على بن الحسين رضى الله عنهما أن صفية زوج النبى ﷺ أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبى ﷺ معها يقلبها حتىَ إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبى ﷺ: على رِسْلِكما، إنما هى صفية بنت يحيى، فقالا: سبحان الله يارسول الله، وكبر عليهما، فقال النبى: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا» رواه البخارى.

التحليل اللغوى والبلاغى:

«**ثم قامت تنقلب**» أى تعود إلى بيتها.

«**فقام معها يقلبها**» أى يعيدها إلى منزلها.

«على رسلكما» أى امشيا بهدوء وتُؤَدة، فليس هنا شئ تكرهانه.

«**إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم**» المراد: جنس أولاد آدم فيدخل فيه الرجال والنساء كقوله تعالى: ﴿**يا بنى إسرائيل**﴾ بلفظ المذكر ألا أن العرف عممه فأدخل فيه النساء. وقوله ﷺ: «يبلغ أى يجرى» قيل: إنه على ظاهره وأن الله تعالى أقدره على ذلك، وقيل: إنه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فى تشبيه كثرة إغوائه بامتزاجه بدم الإنسان وكأنه لا يفارقه.

«وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا» فى «يقذف» استعارة تصريحية تبعية، إذ شبه وسوسة الشيطان إلى قلب الإنسان بالقذف بجامع

الشدة والتأثيـر فى كل. ولا يدل ذلك علـى أنهما ظنا بـالرسول سوءًا فبادر الـرسول إلى نفيـه وإبعاده، وإنما يـفيد خشيـة الرسول ﷺ أن يوسوس الشيطان لهـما، لأنهما غير معصومين مما قد يـفضى بهما إلى الهلاك إلى إعلامـهما بحقيقة الأمر حـسمًا للظن وقطعًـا لدابر الشك وتعليمًا لمن بـعدهما إذا وقع له مثل ذلك، أو كما قال الـشافعى رحمه الله: إنما قال الرسول ﷺ ذلـك لأنه خاف عليهما الكـفر إن ظنا به التهـمة فبادر إلى إعـلامهما نصحًـا لهما قبـل أن يقذف الشيـطان فى نفسيهما شيئًا يهلكان به.

ومن الصور الواضحة للاجتهاد فى دفـع الشبهة ونفيها ما وقع من سيدنـا يوسف عليه الـسلام الذى أودع السجـن ظلمًا على الـرغم من ثبوت ووضوح الأدلة ببراءته وذلك بنـاء على ما رآه المستشارون من أن أيداعه فى الـسجن ما يوهم أنه مـذنب وأن زوجة العزيز بريـئة ومكث عليه السلام فى الـسجن بضع سنوات صابرًا محتسبًا يـعلم أصحابه فى السجـن الأدب والفضيلـة ويدعوهم إلى عـبادة الله وحده ويفسـر لهم الرؤى، وقد فسر رؤيا صاحبين له بخروج أحدهما من السجن وعودته لسقى الملك، وإعدام الثانى حتى تـأكل الطير من رأسه، ولما طلب من الساقـى أن يذكر الملك بمـوضوعه عاقبـه الله على ذلك بأن مـد له فى سجنه سنـوات أخر بعد أن أنسى الشيطان صـاحبه، ولما أراد الله له أن يغادر السجن إلى الأبـد هيأ لذلك الأسباب فكانت رؤيا الملـك العجيبة التى وقف المفسرون عاجزين عن الوصـول إلى تعبير مقبول لها إلى أن علم بذلك الساقـى الذى كان صاحبًا ليوسف فدلهم عـلى مصدر يقوم بالتفـسير الصحيح لهـا فأرسلوه ليوسف ففـسرها التفسير المـقنع الذى اطمـأن له الملـك فأرسل لإحـضاره من الـسجن ليـتولى إدارة شـئون

الاقتصاد فى مصر فى فترة الجفاف المقبلة، وإذا بيوسف عليه السلام يعتذر عن تلبية نداء الملك ويعتذر عن الخروج من السجن حتى تعلن براءته ويعاد بحث القضية، ويعلم القاصى والدانى أنه برئ براءة تامة، وقد نفذ الملك طلب «يوسف» فأرسل إلى النسوة اللائى شهدن بنزاهته وبذلك انطلقت امرأة العزيز لأول مرة تعلن بلسانها وبكل وضوح أنه برئ وأنه المسيئة. ﴿الآن حصحص الحق..﴾[1] عند ذلك خرج يوسف من السجن بعد أن ولى إلى الأبد كل ما أثير حوله من شبهات زورًا وبهتانًا وفى ذلك درس نافع وعظة بالغة لكل صاحب رسالة وأمين على دعوة.

ما يرشد إليه الحديث:

١ - اجتهاد العلماء والدعاة والمصلحين وأهل الرأى والمسؤولين فى الحذر من الأمور المشتبه فيها والبعد عما يعرضهم لسوء الظن، وتوضيح ما يخفى من الأعمال والتصرفات على بعض الناس، وفى ذلك يقول ابن دقيق العيد: وهذا متأكد فى حق العلماء ومن يقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يؤدى إلى سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص، لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم، كما ذكر بعض العلماء أنه ينبغى للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافيًا نفيًا للتهمة.

٢ - جواز اشتغال المعتكف بالأمور المباحة، كتوديع زائر والحديث مع غيره، وإباحة خلوته بالزوجة.

٣ - شفقة الرسول ﷺ بأمته، وتوجيهه إلى ما يبعد عنهم الإثم.

* * *

---

(١) سورة يوسف: ٥١.

من صور التشبيه فى كلامه ﷺ

«المال نعمة ونقمة»

عرفنا فى الحديث الشريف قبل الماضى أن المال سلاح ذو حدين وأنه مصدر خير وسبيل نعمة للمنفقين الذين يجمعونه من حلال ويخرجون حق الله منه وينفعون به الناس ولا يشغلهم عن طاعة الله تعالى وعبادته، كما أنه تعاسة وبوار وشقاء للبخلاء الذين يقضون كل أوقاتهم فى جمعه من حلال ومن حرام، مع إنصرافهم عن طاعة الله وعبادته، وكنزهم الأموال وعدم إخراج مالله فيه من حقوق، فلا يصيبهم من أموالهم إلا الشقاء فى الدنيا والبوار فى الآخرة.

ويأتى هذا الحديث الشريف ليوضح لنا فيه ﷺ هذا المعنى عن طريق التشبيه الذى يوضح المعنويات ويقرب المعقولات، حيث يشبه لنا ﷺ المال فى كونه نعمة لمن جمعه بحساب وتحرى الحلال فى جمعه، وأخرج حق الله منه، ولم يلهه ذلك عن طاعة الله وفى كونه نقمة لمن وصل الليل بالنهار فى تحصيله مشغولاً بذلك عن طاعة الله، وهمه جمع المال من كل سبيل حلالاً كان أم حرامًا، ثم يبخل بماله فلا يخرج حق الله منه، ولا يخرج من ذلك إلا بالشقاء فى الدنيا والبوار فى الآخرة، فيشبه لنا ﷺ هذه الصورة المعنوية للمال فى كونه نعمة للمنفقين ونقمة للبخلاء بصورة محسوسة واضحة تدركها العيون وهى ما تخرجه الأرض من زروع وما ينبت فيها من نباتات ترعاها المواشى والحيوانات، حيث إن هذه الزروع الخضراء والنباتات الجميلة من أعظم نعم الله على الإنسان والحيوان، و،يمكن أن تكون أكبر نقمة على الإنسان والحيوان، وذلك من حيث استخدامها والاقبال عليها، فإنها تكون نعمة تحقق السمن والجمال وإدرار اللبن للحيوانات التى تأكل منها

بحساب ومن حين لآخر، وتكون نقمة وهلاكًا للحيوانات التى تأكل بلا حساب وبدون توقف وبدون أن تعطى نفسها فرصة لإخراج ما رعت فتكون نهايتها النفوق والهلاك بسبب أكلها الذى لا يتوقف بينما نجت وسلمت الأخرى التى أكلت بحساب. وهكذا المال، (التشبيه السابق تشبيه تمثيلى لأن كلاً من المشبه والمشبه به هيئة ووجه الشبه هيئة مأخوذة من أمور.

الحديث:

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ أن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض! قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا، فقال له الرجل: هل يأتى الخير بالشر؟ فصمت النبى ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدنا حين طلع لذلك، قال: لا يأتى الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوه، من أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع».

التحليل البلاغى:

قوله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم...» يفيد استخدام «إن» وهى للتأكيد الاهتمام بالأمر المتحدث عنه.

وقوله: «ما يخرجه الله لكم من بركات..» يفيد استخدام إسم الموصول «ما» كثرة ما تحتويه الأرض من خيرات ونعم، وأن فى هذه النعم الخير والبركة لمن يحسن استخدامها والانتفاع بها.

قوله: «زهـرة الدنيا» أى ما يـخرج من الأرض من متـاع وخيرات ويشبه فى جـمال شكله زهر الشجـر في جمال شكله وحسـن منظره وزواله بسرعة، وذلك علـى سبيل الاستعارة التصريحيـة الأصلية حيث إن المعنى الحقيقـى للزهر هو: نور الشجر لكن أريد بـه هنا كل ما يعد من زينة الحـياة الدنيا كالزروع والذهـب والفضة وغيرها ممـا يخرج من الأرض. وحذرهم من الانهماك فى تحصيل الـدنيا وجمعها بلا حساب «هل يأتى الخير بـالشر» لما تخوف الرسول ﷺ على المسلمين فى العبارة السابقة من زينة الحياة الدنيا أثار ذلك السائل لأن يسأل: إن زينة الحيـاة الدنيا ومـا يخرجه الله لـلناس مـن جوف الأرض من نعـم فى حقيقته خير فكيف يكون الخير سبيلاً إلى الشر؟

«فصمت الـنبى ﷺ حتى ظننت أنـه ينزل عليه» أى ينـزل عليه الوحى، وقد فهموا ذلك مما كانوا يـعرفون من حالته ﷺ عندما كان ينزل الوحـى عليه وما كان يعـتريه من عرق وتعب، ويـجوز أن يكون سكوته ﷺ ليأتى فى جوابه بالمقنع والمفهم، لكن الأرجح أن سكوته لنزول الـوحى عليـه لقوله: «ثـم جعل يمسح عن جبـينه» وتلـك من أمارات الوحى كما ورد: «وإن جـبينه ليتفصد عرقًا» «ثـم جعل يمسح عن جبينه» أى يـمسح العرق الذى سال على جسـده الشريف أثر نزول الوحى عليه.

«قال أبو سعيد: لقد حمدناه حيـن طلع لذلك» أى فرحنا بالسائل وسعدنا به لما كان سؤاله سببًا فـى نزول الوحى عليه ﷺ بما ذكر بعد وقد ضقنا به وحـزنا فى أول الأمر وعند بداية سؤاله ظنًـا منا أنه سبب بسؤاله الحرج والضيق للرسول ﷺ.

«لا يأتى الخير إلا بالخير» يؤكد ﷺ فى هذه العبارة بطريق النفى

والاستثناء وهو أحد طرق القصر وأقواها أن كل ما يقضيه الله بعباده فيه الخير لهم، وأن كل ما خلقه فى السموات والأرض فإنه نعم أريد بها تحقيق النفع والخير لهم، فكل نعمة فى حد ذاتها فيها النفع للعباد والخير لهم إذا أحسنوا استخدامها والانتفاع بها، لكنها تكون مصدر شقاء وسبيل عناء لهم إذا لم يستخدموها الاستخدام الصحيح ولم ينتفعوا بها الانتفاع المقصود.

«إن هذا المال خضرة حلوة» اختار ﷺ من نعم الله على عباده التى يخرجها لهم من الأرض أظهرها وهى نعمة «المال» وشبهه على سبيل التشبيه المحذوف الوجه والأداء بالزرع الأخضر الحلو المذاق، فالمال محبوب إلى النفوس بشكله ومنافعه كذلك البقلة الخضراء محببة إلى النفوس بشكلها الجميل ومذاقها الحلو، ومع ذلك فإن كلا منهما المشبه وهو المال، والمشبه به «البقلة الخضراء الحلوة» قد يكون سببًا فى الهلاك إذا استغل استغلالاً غير صحيح واستخدم استخدامًا سيئًا، وزاد الرسول ﷺ الصورة توضيحًا بما ذكره بعد ذلك من قوله: «وإن كل ما أنبت الربيع» يفيد التعبير «بأن» وهى للتأكيد و «كل» وهى تفيد العموم أنه لا يستثنى من متاع الدنيا شئ لا ينطبق عليه ذلك الحكم وهو أن يكون مصدر خير بحسن استغلاله ومصدر شقاء بسوء استخدامه كما لا يستثنى من أنواع ما تخرجه الأرض فى أجمل أوقات السنة الذى تزين فيه الأرض بالخضرة والفاكهة وهو فصل الربيع نوع لا ينطبق عليه الحكم السابق.

وإسناد الانبات للربيع، من المجاز العقلى لعلاقة الزمانية حيث إن المنبت فى الحقيقة هو الله تعالى، لكن لما كان الربيع زمانًا يقع فيه الإنبات أسند الإنبات إليه للمبالغة فى كثرة النبات وجماله فى هذا الوقت حتى يتخيل أنه الذى أحدث الإنبات.

«يقتل حبطًا أو يلم» أى يقتـل هلاكًا أو يقترب من ذلك. والحبط: إنتفـاخ البطن مـن كثرة الأكل، فيـقال: حبطت الـدابة تحبط حـبطًا إذا أصابت مرعى طيبًا فأمعنت فى الأكل حـتى تنتفخ فتموت، وتفيد هذه العبارة توضيح كيف تصبح النعـمة نقمة بسوء الاستخدام، فكل الزروع الطيـبة إذا لم تؤكل بحـساب وإذا أسرف فى التهـامها كانت سبـبًا فى الهلاك والموت حبـطًا كذلك المال إذا أسرف فى جمعه وتحـصيله بدون تجنب للحرام والشبهة كان سبيلاً إلى الدمار والبوار.

وبعد أن وضح ﷺ فيما سبق أن كل نـعم الله على عباده ومنها المال تتحول من الـنعم إلى النقم بسوء الاستخـدام كالإسراف فى جمع المال[١] أو الإسراف فـى إنفاقـه أو الإسراف فى المأكـل والمشرب وغـير ذلك، وذلـك بالقـياس على إسـراف الحيوانـات فى الأكل مـن الزرع الجميـل الحلو فيكـون سببًا فى هـلاكها، عاد لـيوضح لنا وفـى نفس الصورة كيف نحافظ على نعم الله ونستخدمـها فيما ينفعنا ويفيدنا بعدم الإسراف فى جمع المال وتحرى كسبه ومعرفة حق الله فيه وأن لا يشغلنا ذلك عن طاعة الله، وذلك بالقياس علـى الدابة التى أقبلت على الزرع الجميل الأخضر الطيب تأكل بحساب ومن حين لآخر بعد أن تخرج ما أكلت فيكون الأكل سبيلاً لسمنها وجمالها ومصدر خير لها، وذلك بقوله:

«إلا آكلـة الخضر» وهـو نوع مـن الكلأ يـعجب المـاشيـة واحده: خضرة. وما يجئ بعد ذلك فإنه من صفاتها.

«امتـلأت خاصرتاهـا» أى امتلأ بطـنها، والخـاصرتان: مفـردها: خاصرة، وهما جانبا البطن من الحيوان.

---

(١) شبه الإمام الغزالى عليه رحمة الله المال فى كونـه نعمة و،نقمة باستعمال الإنسان له بحية لـها نابان فى أحدهما سـم ناقع، وفى الثانى: دواء ناجـع، فإن أصابها إنسان حكيم انتفع بما فيها من دواء، وإن أصابها إنسان أبله ناله سمها وهلاكها.

«اجترت» أى استرجعت ما أدخلته فى بطنها من العلف فاعادت مضغة.

«وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت» أى ألقت ما فى بطنها ثم عادت لتأكل عند الشعور بالجوع، وهكذا توضح تلك العبارات حال هذه الدابة التى تأكل بحساب ثم تستريح من الأكل بالاجترار والتبول ولا تعود إلى الأكل إلا عند الإحساس بالجوع وبعد فراغ بطنها مما أكلته فيصبح الأكل لها مفيدًا ونافعًا بخلاف الأخرى التى تستمر فى تناول الغذاء بلا توقف حتى الموت بسبب الحبط «الانتفاخ».

ويرشدنا الحديث إلى ما يلى:

١ - إن المال ابتلاء من الله لمن أنعم به عليه، وإن الذى ينجح فى هذا الابتلاء هو الذى يجمع ماله من الحلال الطيب وينفق منه فيما شرع الله الانفاق فيه وأن لا يصرفه الاهتمام بالمال عن عبادة الله.

٢ - إن قليلاً من عباد الله هم الذين ينجون من فتنة المال، لذلك وجب الحذر منه والوقاية من شروره.

٣ - إن المال فى حد ذاته خير، وكذلك كل نعم الله على الإنسان خلقها الله لنفعه وسخرها لمصلحته، والإنسان بسوء استخدامه يحول هذه النعم إلى نقم. كأن يحصل ماله من حرام، ولا يخرج حق الله فيه ويشغله المال عن عبادة ربه.

٤ - إنه ﷺ لا ينطق إلا بوحى من ربه.

٥ - إن اكتساب المال بالسبل المحرمة يحرمه البركة، وذلك لتشبيهه ﷺ جامع المال من كل طريق بالذى يأكل ولا يشبع وصدق الله: ﴿**يمحق الله الربا ويربى الصدقات**﴾[١].

٦ - سوء عاقبة الإسراف ونهايته المدمرة لكل شئ.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٦.

هل فى المال حق سوى الزكاة؟

روى البخارى عـن أبى هريرة رضى الله عنـه قال، قال رسول الله ﷺ : «تأتى الإبل على صاحبها علـى خير ما كانت، إذا هو لم يعط فيها حقـها، تطؤه بأخفافها، وتأتـى الغنم على صاحبها عـلى خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها، تطؤه بـأظلافها، وتنطحه بقرونها، قال: ومن حقها أن تحلب على الماء، قال: ولا يـأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها علـى رقبته لها يعار فيقول: يا محـمد، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلغت، ولا يـأتى ببعير يحمله على رقبتـه له رغاء فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد بلغت.

توضيح المفردات والتراكيب:

قوله ﷺ : «تأتى الإبل على صاحبـها. .» تجئ يوم القيامة على أفضل وأحسن ما تكـون من الكثرة والسمن والجمال مما كان يـتمناه لها صاحبها فى الدنيا حيث كانت تختلف أحوالها وذلك لتكون أثقل وأشد وأنكى فى تعذيبه بها حيث يعذب بما كـان يحرص على تكثيره وتسمينه وتعظيمـه وما كان يبخل به ويضن بإخـراجه وتقديمه لمستحقـيه فيكون تعذيبه بذلك مـن غير شك أثقل وأشد عليه حيث إنـه مما صنعت يداه ومما اكتسبت نفسه، وينطبـق ذلك على جميع أصحاب الأموال الأخرى غير الإبل التى لم تخرج منها حقوق الله فيها.

قولـه ﷺ : «تطؤه بأخـفافهـا» أى تدوسه بـأرجلها اسـتخفـافًا وتعذيبًا وانتقامًا وفى رواية لمسـلم: «ما من صاحب إبل لا يؤدى حقها منها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لهـا بقاع قرقر أو فر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحدًا، تـطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كـلما مرت عليه أولاها ردت عليه أخراهـا فى يوم كان مقداره خمسين ألـف سنة حتى يقضى الله بين العباد ويرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قوله ﷺ: «ومن حقها أن تحلب على الماء» أى عند عودتها آخر النهار وورودها على الماء للشرب قبل المبيت ينبغى أن يوزع من لبنها على الفقراء والمساكين الذين يكونون موجودين عند الماء رفقًا بالإبل وإشفاقًا على الفقراء والمساكين وتخفيف عناء التوجه إلى البيوت عنهم، وقد اختلف العلماء فى المقصود بهذا الحق أهو زكاة أم قدر زائد عليها؟ فذهب بعضهم إلى أن المقصود به الزكاة وذهب آخرون إلى أنه واجب آخر فيما ينتجه المال والزرع والماشية غير الزكاة المفروضة بمقاديرها المعلومة فى كل ما بلغ قدر نصاب وقد حال عليه الحول ونميل إلى الرأى الأخير فى أنه قدر زائد على الزكاة المفروضة، كما ذكر أهل العلم الحكمة من عودة جميع مال الشخص من إبل وغنم وغيرهما من أنواع المال عليه يوم القيامة مع إن منع حق الله منه كان في بعضه وليس فى جميعه بأن الحق يكون فى جميع المال غير متميز، ولأن المال لما لم تخرج زكاته وما يتعلق به من صدقات صار غير مطهر لذلك يعود بجملته على صاحبه.

ويرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس منها:

● إن المال فتنة وابتلاء لصاحبه، ولا ينجو من شر المال وآفاته إلا من انتصر على نفسه ووقاها شر الشح فاكتسب ماله من حلال وأعطى كل ذى حق حقه، وأخرج بطيب نفس حقوق الفقراء والمساكين فى ماله من زكاة وصدقات.

● إن من أشد ألوان العذاب وصوره أن يعذب الشخص بما كان يزداد حبًا له وحرصًا عليه من مال وولد فيكون الخطب أشد وتكون المصيبة أكبر وصدق الله: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾[1].

---

(١) سورة التغابن: ١٥.

نية المرء خير من عمله

فمعلوم أن الإخلاص في العمل من أهم عوامل نجاحه وقبول الله له إذ لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه الكريم وكذلك توزن الأعمال وتنال الأجر والثواب من الله لا من حيث ضخامتها أو كثرتها وإنما من حيث توافر عنصر الإخلاص والصدق مع الله فيها فكم من جهود ضخمة وأعمال كبيرة ذهبت هباء وضاعت سدى لأنها عملت لغير وجه الله كهذا الذى هاجر من أجل امرأة يهواها وليس من أجل الله ورسوله وذكر ﷺ بشأنه الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وكم من أناس ينالون من الله أجرًا عظيمًا على أعمال نووا أداءها واضمروا تنفيذها لكنهم لم يتمكنوا لظروف الحياة من مرض وخلافه من القيام بها، كما ذكر ﷺ فى إحدى الغزوات: «إن بالمدينة أناسًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حيث هم حبسهم العذر»، بل إن هناك أعمالاً ينال عليها صاحبها أجرًا كبيرًا من الله على الرغم من وجوبها عليه وأدائه لها بحظ من هوى النفس كمن ينفق على أهله وأولاده يبتغى بذلك وجه الله تعالى، وكمن يداعب زوجته بقصد تحقيق العفاف له ولها وكذلك كل ما يؤديه المرء من عمل فى حياته بيعًا وشراء وغير ذلك يبتغى به وجه الله عز وجل، ويعلمنا ذلك؛ بوضوح سيدنا رسول الله ﷺ فيما يرويه البخارى عن أبى مسعود عن النبى ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة» وفيما يرويه البخارى أيضًا عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ﷺ قال: «إنك لن

تنفق نفـقة تبتغى بها وجـه الله إلا أجرت عليها حتى مـا تجعل فى فى امرأتك».

لغة الحديث:

«يحتسبها» أى يتقرب بها إلى الله تـعالى، ويفيد منطوق العبارة أن ثواب الله على الانفاق لا يكون إلا عند قـصد الاحتساب والتقرب إلى الله، كما يفيد مفـهومها أن من لم يقصد القربة والاحـتساب بانفاقه لا يؤجر، لكـن تبرأ ذمته من النـفقة الواجبة، فـكان على المنفق لـيحظى بالأجر وينال الثواب أن يقصد بجميع ما ينفقه وجه الله وابتغاء ثوابه.

«وجه الله» أى ما عنده من الثواب.

«فى فى امرأتك» أى فى فمها وأصلهـا فم فحذفت الميم للإضافة وتجمع على «أفواه» وتصغر على «فويه».

ويلاحظ أن وضـع اللقمة فـى فم المرأة غالـبًا ما يحدث فـى حالة المداعبة ويقاس عليها كل ما يجئ على نظيرها مما يكون للنفس منه حظ إلا أنه يقصد به وجـه الله، ولذلك استنبط النووى علـيه رحمة الله من هذه العبارة «حـتى ما تجعل فى فى امرأتـك» إن الحظ إذا وافق الحق لا يقدح فى ثوابه - لأن وضـع اللقمة فى فى الزوجة يقع غـالبًا فى حالة المداعبة، ولـشهوة النفس فـى ذلك مدخل ظاهر، ومـع ذلك إذا وجه القصد فى تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله - وعقب العلامة «ابن حجـر العسقلانى» على ما ذكره «النـوى» بأن هناك ما هو أشد من هوى النفس الحاصل لها عند المداعبة بوضع اللقمة فى الفم بما يكون مع الوقاع وإتـيان الرجل أهله فحظ النفـس فى ذلك أقوى وأشد مع عـظم الأجر ونـيل الثواب إذا قـصد به وجـه الله لما ورد فى قـوله ﷺ فيما رواه مسلم عن أبى ذر: «وفى بضع أحدكم صدقة، قالوا يا

رسول الله، أيأتى أحدنا شهوته ويؤجـر؟ قال: نعم، أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟» وإذا كان هذا بهذا المحل مع ما فيه من حظ النفس فما الظن بغيره مما لا حظ للنفس فيه؟

والأحاديث الشريفـة السابقة تحضنا على الإكثـار من فعل الخيرات والاجتهاد فى عمل الصالحات لنيـل الثواب العظيم من الله تعالى وذلك بقصد احـتساب ثواب الله تعالى والتـقرب إليه وابتغاء وجهـه الكريم، حيث إن لقمة واحدة لا تكلف صاحبها كثيرًا من الثمن أو قليلاً يضعها صاحبها فى فم زوجة غير مضطرة لها وواجب عليه الإنفاق عليها ومع ذلك ينال عليها الأجر من الله فما بالك بمن ينفق النفقات الباهظة على أناس محـاويج لا يعرفـهم ولا يعرفونـه، بل ما بالـك بمن ينفـق قوته وقوت أهله وأولاده مصـداقًا لقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة...﴾[1] الآية وقوله: ﴿ويطعمون الـطعام على حبه...﴾ الآية[2]؟

كما نخرج من الحديث الشريف عدا ما سبق بالفوائد التالية:

- إن الأعمال الطيـبة وغير الطيبة ليسـت بكثرتها ولا بقلتـها ولكن بما يصحبها من نوايا.
- إن نية المرء خير من عمله.
- إن الإنفاق على الأهل والعيال من أفضل ما يتقرب به العبد لربه.
- اهتمام الإسلام بالأسرة حيث هى أصل المجتمع والأساس الذى تقوم عليه الأمة.

* * *

---

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) سورة الإنسان: ٨.

من سمات بلاغته ﷺ

مخاطبة الناس على قدر عقولهم

ومن صفات حكماء الناس وبلغائهم أن تختلف معاملاتهم وأن يتنوع كلامهم باختلاف وتنوع من يتعاملون معهم ويتحدثون إليهم، وألا يأخذ حديثهم طابعًا واحدًا أو يلتزموا فى تعاملهم بأسلوب معين لا يغيرونه ولا يحيدون عنه، ولذلك قيل: «لكل مقام مقال» ولذلك كانت مخاطبة السوقة غير مخاطبة العلماء والأعيان والأمراء، كما يختلف الحديث إلى الطفل عنه إلى الشاب، وما يقال للرجل يختلف عما يقال للمرأة، وما يخاطب به البدوى يختلف عما يخاطب به الحضرى، وكلما أوتى الفرد قدرًا من الحكمة والبلاغة كلما كان أكثر فهمًا وتقديرًا لأحوال الناس وظروفهم وما يناسبهم من أحاديث، وما يلائمهم من تعامل، وقد تحققت هذه الصفة على أكمل وجوهها فى سيدنا محمد ﷺ وتحدث عنها فى معرض سرده لما اختصه الله من نعم فقال: «وأمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

ومن الواجب علينا معشر المسلمين أن نقتدى به ﷺ فى هذه الصفة العظيمة وغيرها من الصفات، ولو أن كل مسلم عامل أخاه على قدر عقله ونزل إلى مستوى فكره لكان المسلمون جميعهم مثالاً للأخوة الصادقة والمودة الصافية ولذابت الخلافات من طريقهم وامحت المحن والعداوات والأحقاد من بينهم.

ونرى فى هذا الحديث صورة عملية واضحة لهذه الصفة الكريمة عنده ﷺ إذ دخل أعرابى المسجد ليتبول فيه بينما يجلس الرسول فى المسجد مع بعض أصحابه، ففزع الصحابة لذلك وحاولوا زجر الرجل

ومنعه من ذلك المنكر، لكن الرسول منعهم من ذلك، حتى إذا انتهى الرجل من التبول دعاه ﷺ ووضح له أن المساجد جعلت لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن وكل عمل طيب فيجب أبعاد النجاسات والقاذورات عنها، فهدأ الرجل وهدأ الصحابة ثم بعد ذلك أمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم أن يزيل النجاسة بدلو ماء، فحسمت المشكلة وخرج الرجل راضيًا ولم يقع الصحابة فى حرج وأفاد الجميع بفضل حكمته ﷺ ومعالجته الأمر برفق ومخاطبة الناس على قدر عقولهم.

الحديث:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه فقال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال - ثم إن رسول الله ﷺ دعاه ثم قال: إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ، فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه. متفق عليه.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قام أعرابى فبال فى المسجد فقام إليه الناس ليقعوا به فقال ﷺ: «دعوه وأزيقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين.

[رواه الجماعة إلا مسلمًا]

التحليل اللغوى والبلاغى:

«بينما نحن فى المسجد..» يفيد ذلك أن لقاء الرسول ﷺ بأصحابه كان غالبًا فى المسجد، إذ كانوا يجتمعون فيه للصلاة والذكر وتلاوة القرآن ومدارسة العلم ومناقشة أمور المسلمين فى السلم

والحرب، ولم يكن المسجد مجرد مكان تقام فيه الصلاة.

«إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد» الأعرابى: من يسكن البادية، قيل: هو ذو الخويصرة اليمانى، وقيل: هو الأقرع بن حابس التميمى، وقيل: هو عيينه بن حصن، ويفيد التعبير «بإذا» أنهم فوجئوا بهذا المشهد الذى رأوه غريبًا عليهم، لكنه كان مألوفًا للأعرابى الذى تعود على ذلك فى البادية ولم يكن قد عرف آداب المسجد بعد.

فقال أصحاب رسول الله ﷺ: «مه مه» اسم فعل ومعناه: كف وابعد وقيل: هى كلمة زجر أصلها، ما هذا فخففت، وتقال مكرره ومفردة ويدل ذلك على إدراك الصحابة رضوان الله عليهم حرمة المسجد وغيرتهم من وقوع الأذى به وتحركهم لأبعاد وإزالة ذلك المنكر، وهكذا ينبغى أن يكون المؤمنون أشد غيرة وأكثر حرصًا على تطهير بيوت الله من كل ما يشينها ويشوه جمالها وبهاءها.

«فقام إليه الناس ليقعوا به» أى ليمنعوه من ذلك، وتفيد تلك الرواية أن الصحابة حاولوا تغيير المنكر باليد، بينما تفيد الرواية الأولى تغييرهم للمنكر بالقول.

«فقال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه، فتركوه حتى بال» «لا تزرموه» أى لا تقطعوا عليه بوله من الزرام وهو القطع ويدل ذلك أعظم دلالة على بعد نظره ﷺ وكياسته فى معالجة المشكلات وحسم القضايا ومخاطبة الناس على قدر عقولهم - إذ أدرك ﷺ بفكره النير أن الصحابة لو استمروا فى إنكارهم ما يقوم به الأعرابى وتغييرهم لذلك المنكر بيدهم أو بلسانهم فى اللحظة التى يقضى فيها حاجته لحدث ما لا يحمد عقباه من السب والشتم والجذب والضرب الذى ينتهى إلى وقوع التقاتل فى المسجد وحدوث فتنة لذلك بادر ﷺ بتهدئة الموقف

وطلب من الصحابة أن يدعوا الأعرابى يقضى حاجته حتى تأتى اللحظة المناسبة لمعالجة الموقف.

«فتركوه حتى بال» يفيد العطف بالفاء وهى للترتيب والتعقيب حسن أدب الصحابة وسرعة استجابتهم لما طلبه منهم الرسول ﷺ إذ يعلمون أن الخير كل الخير فى تنفيذ توجيهاته، ونرى أن ذلك يمثل المرحلة الأولى لمعالجة المشكلة وتتمثل كما نرى فى: تهدئة الموقف والانتظار والتمهل للحظة المناسبة.

«ثم إن رسول الله ﷺ دعاه ثم قال»

يمثل ذلك: المرحلة الثانية فى معالجة المشكلة وهى: جانب الإرشاد والتوجيه، وهو إرشاد وتوجيه يفيد منه أولاً: الأعرابى بعد أن قضى حاجته واستراحت أعصابه، وثانيًا: الصحابة الذين تزيد إفادتهم بذلك، وثالثًا: المسلمون الذين يفيدون من ذلك الدرس إلى قيام الساعة.

«إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ولا القذر» هذا هو الشق الأول من النصيحة، وهو تنزيه المساجد عن النجاسات والقاذورات وما فى حكمها من كل ما يخل بنظافة المسجد ويقلل من حسنه وروعته ويصد الناس عنه، وكذا كل ما يتعارض مع طاعة الله تعالى كالخصومات والبيع والشراء وإنشاد الضالة وغير ذلك من الأعمال التى تعكر على المسلمين صفوهم وتشوش عليهم، وبذلك ندرك أن ذكر البول والقذر ليس على سبيل الحصر والاختصاص، بل ليكونا مثالين يندرج تحتهما كل ما يصد عن طاعة الله وعبادته فى بيوته.

والتعبير باسم الإشارة «هذه يفيد تعظيم بيوت الله وإعلاء شأنها.

وجمع «المساجد» لإفادة ان هذا الحكم يتعلق بجميع المساجد التى

بنيت لله، وليس ذلك مقصورًا على هذا المسجد.

«إنما هى لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن» وذلك هو الشق الثانى للنصيحة، وهو تعمير بيوت الله فى جميع الأوقات بالأعمال السابقة وكل ما يماثلها مما يتعلق بطاعة الله واتباع سنة رسوله، كمدارسة العلم والصلح بين المتخاصمين وغير ذلك.

وبذلك يفهم أن الأمور المذكورة ورد ذكرها كأمثلة ونماذج يقاس عليها غيرها ولا يراد منها قصر عبادة الله فى المساجد عليها.

ويفيد عطف كل منها بالواو أن الصلاة غير ذكر الله وأن تلاوة القرآن غير ذكر الله والصلاة، وأن كلاً منها نوع من عبادة الله مستقل برأسه وأن كلاً من القرآن والصلاة يسمى ذكرًا، وكل من الصلاة والذكر يشتملان على تلاوة القرآن، وقد ذكر ذلك بعض المفسرين فى تفسيرهم لقوله تعالى: **﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾**[1] فقالوا: إن عطف: «وإقام الصلاة» على ذكر الله يعنى أن كلاً منهما غير الآخر.

«فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» إسناد «البعث» إليهم على سبيل المجاز لأنه ﷺ هو المبعوث بما ذكره، لكنهم لما كانوا فى مقام التبليغ عنه فى حضوره وغيبته أطلق عليهم ذلك، أو هم مبعوثون من قبله بذلك أى مأمورون به.

وإذا كانت عبارته ﷺ فى الرواية الأولى «إن هذه المساجد لا تصلح لشئ.. وقراءة القرآن» نصيحة وتوجيهًا للأعرابى أولاً: فإن هذه

---

(١) سورة النور: ٣٦، ٣٧.

العبارة: «فإنما بعثتم..» نصيحة لأصحابه أولاً حيث توضح السبب الذى من أجله نهاهم الرسول ﷺ عن منع الأعرابى من التبول وقضاء حاجته و،هو التيسير وعدم التعسير، والتيسير فى ذلك واضح وهو: مخاطبة الناس على قدر عقولهم، والتدرج. معهم فى توجيه النصائح وتقديم المواعظ.

بينما وضحت عبارة الرسول ﷺ فى الرواية الأولى: «إن هذه المساجد لا تصلح..» السبب الذى من أجله وقف الصحابة فى وجه الأعرابى وحاولوا منعه من قضاء حاجته وهو تنزيه المساجد عن النجاسات ولم يكن له علم بذلك.

ولعلك تدرك ما فى العبارة: «فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» من روعة وانسجام نشأ من الجناس بين «ميسرين ومعسرين» والجناس من فنون البديع التى تضفى على الأساليب بهجة وجمالاً، كما أن هناك تضاداً بالطباق بينهما، والضد أقرب الأشياء خطوراً بالبال عند ذكر ضده.

«فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه» «فشنه عليه» أى صبه، ويروى: «فسنه» بالسين، والمعنى واحد، وقيل إن معنى «سنه» صبه بسهولة، و «شنه» التفريق فى صبه.

وتفيد تلك العبارة: الشق الثالث من خطته ﷺ فى علاج تلك المشكلة، وهو الإزالة والمحو بالماء الذى قال الله فيه: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء طهوراً**﴾[1].

وندرك بذلك حصافة الرسول ﷺ وكياسته فى علاج تلك المشكلة بما يشبه أن يكون منهجاً يحتذى عند علاج كل مشكلة وتتمثل

---

(١) سورة الفرقان: ٤٨.

خطواته فيما رأينا:

١ - تهدئة الموقف وإرجاء الحسم والحل انتظاراً للوقت المناسب.

٢ - التوجيه والنصح والإرشاد.

٣ - الحسم الفعلى والتطهير العملى.

«وَأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء» «السجل» الدلو مملوء ولا يقال له ا ذلك وهى فارغة، وقال ابن دريد: السجل: الدلو الواسعة، وفى الصحاح الدلو الضخمة.

«أو ذنوبًا من ماء» «أو» شك من الراوى أو للتخيير، فالذنوب كالسجل، والتقييد بقوله: «من ماء» مع أن «الذنوب» متعلق بحمل الماء ومن شأنه ذلك، لأن الذنوب مشترك بين الدلو والفرس الطويل الذنب وغيرهما فقيد بقوله: «من ماء» دفعًا لذلك الاشتباه.

ويؤخذ من الحديث ما يلى:

١ - تخير الداعية والمصلح للوقت المناسب لعلاج المشكلة من أهم العوامل فى تحقيق الحسم والحل بإذن الله.

٢ - التأنى والتريث فى مواجهة المشاكل إذا كان يترتب على الإسراع ضرر أشد.

٣ - تعالج المشكلات خطوة بخطوة ومرحلة مرحلة ولا تستأصل مرة واحدة.

٤ - يتم تحقيق الرضا لجميع أطراف وأشخاص المشكلة حسمًا لها وليس مع بعض الأطراف دون البعض الآخر. وتستأصل من جميع جذورها ولا يكتفى بالحلول المؤقتة والمسكنة.

٥ - معرفة ظروف الناس والوقوف على أحوالهم واتجاهاتهم ومخاطبتهم على قدر عقولهم من أهم العوامل فى المعاونة على حسم

المشكلات.

٦ - تعمير المؤمنين لبيوت الله بالذكر والصلاة وتلاوة القرآن ومدارسة العلم وفعل الخير وتطهيرها من كل ما يشوه جمالها ويصد الناس عنها.

٧ - حسن أخلاق الصحابة وسرعة استجابتهم وطاعتهم لله ورسوله.

٨ - جدارة الرسول بقيادة الأمة وختم الرسالة لأنه ملهَم من ربه مصداقًا لقوله: **﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾**[1].

* * *

---

(١) سورة النجم: ٣، ٤.

معاملة النساء على قدر عقولهن

إذا كان من آداب الإسلام ومن اقتداء المسلمين بالرسول ﷺ أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم، فإن ذلك ينبغى أن يكون شبه واجب وأمرًا لازمًا عند التعامل مع المرأة: أمًا كانت أو زوجًا أو بنتًا أو أختًا أو جارة أو غير ذلك من نساء المسلمين ولو نفذ كل مسلم ذلك المنهج وبصفة خاصة عند التعامل مع نساء المسلمين لخلا المجتمع الإسلامى من كثير من المشكلات التى تقع وتكون المرأة طرفًا فيها.

وقد وضح ﷺ سر حاجة المرأة بصفة خاصة إلى طريقة معينة فى التعامل معها بأن الله خلقها على وجه غير الوجه الذى خلق الرجل عليه، هذا الوجه يرتبط بأهم ما خلق الله المرأة من أجله وهو التوالد وبقاء النسل مما جعلها فى أغلب الأوقات ضعيفة الجسم الذى يترتب عليه ضعف فى العقل والدين، وغير ذلك فقد ذكر ﷺ أن المرأة خلقت من ضلع وأن هذا الضلع لا يصح التعامل معه والمحافظة عليه إلا بأن يبقى على حاله، أما محاولة إصلاحه فإنها تؤدى إلى كسره وفنائه وهكذا المرأة تحتاج فى التعامل معها إلى رفق ورحمة وقبول ما يقع منها من تصرفات فى بعض الأحيان لاعتلال جسمها وضعف عقلها ودينها وقد وضح لنا ذلك كله ﷺ فى مجموعة من الأحاديث الصحيحة منها:

ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فى فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار، فقلن: وبم يارسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن وما نقصان ديننا

وعقلنا يارسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها».

وروى البخارى أيضًا عن عطاء بن يسار عن بن عباس قال: قال النبى ﷺ «أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط».

التحليل اللغوى والبلاغى:

«يا معشر النساء» المعشر: كل جماعة أمرهم واحد.

«أريتكن» على البناء للمفعول، أى أن الله أطلعه على ذلك ليلة الإسراء والمعراج.

«وبم يارسول الله» الواو استئنافية والباء تعليلية أى: ما سبب ذلك، والميم أصلها: ما الاستفهامية فحذفت منها الألف تخفيفًا.

«تكثرن اللعن» السبب الأول: أى يكثر منكن السب والشتم.

قال القاضى أبو بكر بن العربى: المراد من ذلك أن الطاعات كما تسمى إيمانًا كذلك المعاصى تسمى كفرًا، وحيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر الذى يخرج صاحبه عن الإسلام.

وخص كفران العشير بالذكر من بين كل الذنوب لسر بديع وضحه قوله ﷺ: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

فقرن حق الزوج على زوجته بحق الله عليها، فإذا جحدت المرأة حق زوجها وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية كان ذلك دليلاً على تهاونها بحق الله، ويطلق عليه الكفر لكنه كفر لا يخرج من الدين.

«ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من

إحداكن».

أما أن يكون ذلك تفسيرًا وتوضيحًا للسببين السابقين، وإما أن يعد سببًا ثالثًا مستقلاً.

«وأذهب» أى أشد اذهابًا، واللب: أخص من العقل وهو الخالص منه.

«والحازم» الضابط لأمره، وفى هذا مبالغة فى وصفهن بذلك لأن -الضابط لأمره إذا ذهب عقله بسببهن فغير الضابط أولى. واستعمال أفعل التفضيل «من ذُهب» جائز عند سيبويه إذ جوزه من الثلاثى والمزيد.

«قلن: وما نقصان ديننا؟» كأنهن خفى عليهن ذلك حتى سألن عنه، ويدل سؤالهن على تسليمهن بما ذكره ﷺ من أنهن أكثر أهل النار للأسباب التى حددها وهى: كثرة اللعن وتكفير العشير ونقصان العقل والدين، لكنهن أردن توضيحًا لذلك، وكان ﷺ فى منتهى اللطف فى الإجابة عليهن بدون تعنيف ولا لوم.

ولا يقصد من حديث الرسول ﷺ عن نقص عقول النساء ودينهن لومهن على ذلك لأنه أمر لا دخل لهن فيه قد فطرهن الله عليه، وإنما يراد التنبيه إلى ذلك حتى يعرف الرجال الأسلوب المناسب للتعامل معهن.

ويشير قوله ﷺ: «مثل نصف شهادة الرجل» إلى قوله تعالى: **﴿.. فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان من ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى..﴾**[1] فإن استعانة المرأة بأخرى وعدم الاكتفاء فى الإدلاء بالشهادة بواحدة يؤذن بقلة ضبطها ويشعر بنقص عقلها.

ويرشدنا الحديث بروايته إلى ما يلى:

١ - أنه يجوز للنساء حضور صلاة العيد على أن يجلسن فى ناحية

(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

مستقلة فلا يختلطن بالرجال ولا يرى كل منهما الآخر.

٢ - أنه يجب تقديم الشكر قولاً وعملاً لأرباب النعم، حيث أن التقصير فى الشكر يعد جحودًا، وشكر من أجرى الله النعمة على يديه شكر لله تعالى مصداقًا لقوله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

٣ - من أساليب الدعوة والإرشاد: المبالغة فى التخويف والوعيد إذا كانت تلك المبالغة تنتهى بإزالة المنكر.

٤ - إن الاستغفار والتصدق من أهم الأعمال التى تكفر الذنوب وتزيد الأرزاق وتبارك فيها قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فقلت استغفروا ربكم.. أنهارًا﴾[1] وقال على لسان هود ﷺ: «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه.. مجرمين﴾ وقال ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».

٥ - أن للمتعلم أن يراجع معلمه فيما لا يفهمه ويستوضح منه ما يخفى عليه.

٦ - أن معرفة المتكلم لأحوال السامعين من أهم ما يجعل كلامه مناسبًا ومفيدًا لهم، وأن معاملة الرجال للنساء على قدر عقولهم مما يحقق لهم الأمن والراحة والاستقرار فى حياتهم وفى أسرهم.

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المرأة كالضلع، إذا ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها على عوج. وفى لفظ: استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء.

«كالضلع» بكسر الضاد وفتحها، واحد الأضلاع، والفائدة فى

---

(١) سورة نوح: ١٠ - ١٢.

تشبيه المرأة بالضلع: الإشارة إلى أن المرأة تختلف عن الرجال من حيث الطبع والتعامل، وذلك لضعف جسمها وعقلها ودينها فمن يحاول حملها على طبع سليم فى كل الأحوال فإنه لا يتحقق له ذلك ويفسدها، ومن يتعامل معها بما يتفق مع طباعها ويتلاءم مع فكرها فإنه ينتفع بها وتدوم العشرة بينهما، كما أن الضلع المعوج لا يستقيم الانتفاع به إلا على ما به من عوج، لكنه ينكسر ويفسد عند محاولة إقامته وإزالة ما به من عوج، وفى ذلك تشبيه تمثيلى.

ويراد بقوله: «وإن اعوج شىء فى الضلع أعلاه» المبالغة فى الإعوجاج والتأكيد لمعنى الكسر بأن تعذر الإقامة فى الجهة العليا أمره أظهر، حيث لا ينتج من محاولة الإصلاح إلا الكسر بخلاف ما لو كان الاعوجاج فى الوسط فإنه يرجى إصلاحه، وقيل: يحتمل أن يكون ذلك مثلاً لأعلى المرأة، إذ أن أعلاها رأسها وفيه اللسان الذى يحدث عنه ويسببه الفساد.

و «أعوج» هنا من باب الصفة وليس أفعل تفضيل، لأن أفعل التفضيل لا يصاغ من الألوان والعيوب، وقيل: الظاهر هنا أنه للتفضيل وجاء ذلك على قلة مع عدم الالتباس بالصفة.

«فإن ذهبت تقيمه» يعود الضمير إلى الضلع وليس إلى أعلاه، والضلع يذكر ويؤنث ولذا قال فى الرواية الأولى: (تقيمها) وفى هذه: «تقيمه» «استوصوا بالنساء» أى اقبلوا الوصية، والمعنى: إنى أوصيكم بهن خيراً فاقبلوا، أو ليوص بعضكم بعضًا بهن.

«خلقت من ضلع» أى من ضلع آدم الذى خلقت منه حواء.

والحديث يرشدنا إلى ملاطفة النساء ومعاملتهن على قدر عقولهن ودينهن والصبر على ما لا يستقيم من أخلاقهن، وذلك أعظم علاج لما يلقاه كثير من الرجال من أمور تؤدى إلى صعوبة دوام المعاشرة بينهم وبينهن.

الإسلام أدب وسلوك

فإن تنفيذ المسلم لأركـان الإسلام ووجوه الإيمان من صلاة وصيام وزكاة وحج بيت الله الحـرام عند الاستطاعة مع الإيمان بـالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخر وما فيه والقدر خيره وشره تنفـيذًا صحيحًا وأدائه لها أداء سليمًـا ينتج عنه كثير من الصفـات ومتنوع من الخصال، وهى صفات تعـرف بعلامات الإيمان وخصاله، كـما ورد فى الحديث الشريـف الذى رواه البخـارى عن أبى هريـرة: «الإيمان بضـع وستون سشعبـة والحياء شعبة من الإيمـان» ومن صفات الإيمان وشعـبه حسن الخلق، ومن حسن الخلق: علاقة المسلم الطـيبة والحسنة بكل من يلتقى بهم ويـتعامل معـهم من أهل وجيـران وأصدقاء وزملاء وغيـرهم من الناس فلا يـقدم لهم إلا خيرًا ولا يـرون إلا خيرًا، ويوضح لنـا سيدنا رسول الله ﷺ فى الحديثين التاليين مظـهرًا من مظاهر المعاملة الحسنة والأخلاق الطيبـة التى ينبغى أن يكون عـليها المسلم مع جـميع إخوانه المسلمين بـل مع الناس جميعًا، فيروى البخـارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال: «قـالوا: يارسول الله أى الإسلام أفضل؟ قـال: من سلم المسلمون من لسانه ويده».

كما روى البخارى عن عبد الله بـن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: تطـعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» والحديثان الشريفان المذكوران يكمل كل منهما الآخر ولذلك أوردهما البخـارى متجاورين، وهما معًا يوضحان لنا مظهرًا طيبًا من المظاهر التى ينـبغى أن يكون عليها المسلم وهى كريم تُعامله وحسن علاقته بجميع الناس فلا يرون منه إلا خيرًا ولا يقدم لهم إلا خيرًا وتخصيـص اللسان واليد فى الحديث الأول بالـذكر لأن معظم

ما يصنعه الإنسان من خير أو شر يكون بوساطتهما يقول ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم فليقل خيرًا أو ليصمت» ويقول لمن سأله عن سبيل النجاة: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» ويذكر ﷺ أن كثيرًا من الناس يدخلون النار بسبب سوء استخدام ألسنتهم فى قوله: «هل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» وقال تعالى: ﴿**ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم**﴾[1] فجعل الأعمال للأيدى لكونها تقع بها وبوساطتها، فاللسان واليد من أعظم نعم الله على العبد وهما مصدر خير وإسعاد له فى دنياه وفى أخراه إن أحسن استعمالهما ومصدر شر وتعاسة له فى دنياه وفى أخراه إن أساء استخدامهما.

ويأتى الحديث الثانى ليكون بمثابة شرح وتوضيح لما ورد فى الحديث الأول، إذ ذكر ﷺ فى الحديث الأول أن من أفضل خصال المسلم بصفة عامة أن يسلم الناس من لسانه ويده، ووضح ﷺ فى الحديث الثانى أن من أفضل الأعمال وأحسنها: إطعام الطعام وإلقاء السلام على الجميع بدون تمييز بين من نعرفهم ومن لا نعرفهم، ونلاحظ أن إطعام الطعام من عمل اليد وإن إلقاء السلام من صنع اللسان مما يؤكد لنا تكملة كل منهما للآخر ويفسر لنا جمع البخارى رحمه الله بينهما وإتيانه بهما فى موطن واحد، وغير خاف ما يترتب على إطعام الطعام وإفشاء السلام من تأليف بين القلوب وتجميع للصفوف وإزالة للخلافات ونشر للمودة والتراحم والتعاطف بين الجميع ولذلك يدعونا القرآن فى أكثر من موطن وبغير صيغة لإطعام الطعام فيقول ﴿**أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيمًا ذا مقربة . أو مسكينًا**

---

(١) سورة يس: ٣٥.

ذا متربة﴾[١] ويقول سبحانه: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا﴾[٢] وقال ﷺ: «إن فى الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، قيل لمن هى يا رسول الله؟ قال: لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وألان الكلام ووصل الأرحام وصلى بالليل والناس نيام».

ونخرج من كلام سيدنا رسول الله ﷺ السابق بالفوائد والدروس التالية:

- إن للإسلام الكامل ثمارًا متعددة من ابرزها وأهمها: حسن الخلق.
- إن المعاملة الطيبة لجميع الناس وتجنب الإساءة إليهم من مظاهر الإيمان بالله ورسله.
- إن تقديم العون والمساعدة للناس بإطعام الطعام وغيره من صور السخاء والجود من أهم ما يؤلف بين الأفراد والجماعات.
- إن إلقاء السلام على جميع من نعرفهم ومن لا نعرفهم من أهم ما يؤكد لنا أن الإسلام يقوم على الحب والتراحم والاحترام وينأى عن العنف والإرهاب والقسوة.

* * *

(١) سورة البلد: ١٤ - ١٦.
(٢) سورة الإنسان: ٨، ٩.

من أخلاق الإسلام وآدابه
أن يحب المسلم للناس ما يحب لنفسه

فمن أخلاق الإسلام وآدابه التى تؤلف بين المسلمين وتجمعهم على المودة والحب والتراحم والتعاطف: أن يعامل المسلم الناس بما يحب أن يعامله الناس به، بأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما لا يرضاه لنفسه امتثالاً لقوله ﷺ فيما يرويه البخارى عن أنس رضى الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

لغة الحديث:

«لا يؤمن أحدكم» أى لا يكمل إيمانه، فليس النفى للإيمان وإنما هو للإيمان الكامل كقولنا: فلان ليس بإنسان لتجرده من بعض الصفات الطيبة التى يعرف بها الناس «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» هناك محذوف تعينه وتشير إليه العبارة المذكورة بطريق اللزوم أى: «ويكره له ما يكره لها».

ولو طبق الناس هذا التوجيه النبوى الكريم فى حياتهم وفى تعاملهم لامحت الأثرة والأنانية والبغضاء من بينهم، وحل بدلاً منها الإيثار والحب ولصاروا كما يريد الإسلام لهم أمة واحدة، فليس من خلق المسلم ولا من أدب الإسلام أن يتعامل الفرد مع أهله وأصدقائه ومعارفه بطريقة، ويتعامل مع بقية الناس ممن لا تربطه بهم قرابة أو صداقة أو غير ذلك بطريقة أخرى، ومثل هذا الشخص الذى يتعامل مع الناس بوجهين وما أكثر نماذجه وصوره فى دنيا الناس مثل من يكيل بكيلين ويزن بميزانين، وهذا مسلك يرفضه الإسلام وينهى عنه لما فيه

من أكل أموال الناس بالباطل وتفريق وحدة المسلمين قال تعالى: ﴿**ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنو هم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ وقال ﷺ : «من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» وقال ﷺ أيضًا لأبى الدرداء: «يا أبا الدرداء: أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا».

وقال الحسن رضى الله عنه: أوحى الله إلى آدم عليه السلام بأربع خصال وقال فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة بينى وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التى لى: تعبدنى ولا تشرك بى شيئًا، وأما التى لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التى بينى وبينك: فعليك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به.

ويروى أن يونس بن عبيد كان يتاجر فى أثواب بعضها بمائتى درهم وبعضها بأربعمائة فذهب يومًا للصلاة تاركًا ابن أخيهِ فى الدكان، فجاء أعرابى وطلب ثوبًا بأربعمائة فأعطاه الغلام ثوبًا بمائتين فاستحسنه الأعرابى وأخذه ومضى، وفى الطريق قابله فسأله عن الثمن الذى اشترى به الثوب؟ فقال: بأربعمائة، فقال له يونس: إن ثمنه لا يزيد على مائتين، فقال الأعرابى: إنه فى بلاد نا يساوى أكثر من خمسمائة وأنا ارتضيته، فقال له يونس: النصح فى الدين خير من الدنيا وما فيها، ورده إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم، وخاصم ابن أخيه ولامه وقال له: أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح

للمسلمين، فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها، فقال: هلا رضيت له بما ترضاه لنفسك.

فلنمض فى تعاملنا مع كل من نتعامل معهم على هذا النهج الإسلامى وعلى ضوء هذا الأدب النبوى الكريم بأن نحب لهم كل ما نحب لأنفسنا ونكره لهم ما نكره لها وبذلك يزول البغض والخصام ويسود الحب والوئام ونصبح أقوياء مجتمعين لا ضعافًا متفرقين وصدق الله العظيم: **﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[1].

ويؤخذ من الحديث الشريف:

- نبذ الإسلام للأثرة والأنانية حيث أنهما سبيل لتفرق الصفوف.
- دعوة الإسلام إلى الحب والإيثار والتراحم والتعاطف وكل الصفات الطيبة التى تعمل على قوة الأمة وتوحيد صفوفها وجمع كلمتها.
- إن الإسلام ليس مجرد شعارات أو شعائر، وإنما هو عقيدة، وعمل ينتج عنهما سلوك طيب وخلق حسن.

* * *

(١) سورة الأنعام: ١٥٣.

المسلم كالنخلة

فمن شأن المسلم أن ينفع ولا يضر وأن يعم نفعه كل شئ يتعامل معه وتمتد يده إليه من إنسان وحيوان وطير ونبات وجماد. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى من ذلك ما يرويه البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبد الله: ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هى يارسول الله؟ قال: هى النخلة».

لغة الحديث:

«المثل» بفتح الميم والمثل بكسرها: ما يضرب من الأمثال.

«فوقع الناس فى شجر البوادى» أى أخذ كل منهم يفسرها بنوع من أشجار البادية عدا النخلة.

«فاستحييت» أى منعنى الحياء من إجابته ﷺ بأنها النخلة وفى رواية أخرى: «فأردت أن أقول هى النخلة، فإذا أنا أصغر القوم» وفى رواية ثالثة: «رأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم».

وجه الشبه بين المسلم والنخلة:

وتشبيه الرسول ﷺ المسلم بالنخلة فى تعدد المنافع وكثرتها فكما أن النخلة تتعدد منافعها وتكثر فوائدها فى كل الأحوال وفى جميع الأوقات فكذلك المسلم ينبغى أن يعم ويكثر خيره، فالنخلة شجرة طيبة أو هى فى مقدمة الأشجار الطيبة التى شبه بها الله سبحانه الكلمة الطيبة فى قوله سبحانه: ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها...**﴾ [الآية ٢٤، ٢٥ من سورة إبراهيم]، فقد وصفت الشجرة فى

الآية الكريمة بـعدة صفات هى: «طيبة» ويراد بها جمـال المنظر وطيب الرائحة وحسن الظل وجودة الثمـر وغير ذلك من أنواع النفع، وقوله: «أصلها ثابت» أى تمـتد جذورها فى الأرض لمسافات بعيدة تجـعلها أكثر ثباتـًا فى وجه الريـاح والعواصف وأطـول عمرًا وأكثـر نفعًا، وقـوله: **﴿وفرعها فى السماء﴾** أى تتشعب أغصانها وفـروعها وترتفع فى الجو لمسافات عـالية مما يهيئـها لاستقبال الهـواء النقى والماء الصافـى فيزهو شكلها ويطيب ثمرها ويعم نفعها، ثم قال: **﴿تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾** أى يتوافـر ثمرها فى كـل أوقات السنـة ولا يقتصر عـلى وقت معين، وما ذكره العلماء عن منافـع النخلة وفوائدها لا يخرج عن هذه الصفات التى وصفت بها الشجرة فى الآية الكريمة، فمما ذكره العلماء عن منافع النخلة وفوائدها والتى ينـبغى أن يكون المسلم شبيهًا بها، أن بركتهـا موجودة فى جميـع أجزائها مستمـرة فى جميع أحوالـها، فمن حين تطلـع إلى أن تيبس يؤكل ثمرها المـتنوع، وينتفع بجمـيع أجزائها حتى النوى فى عـلف الدواب والليف فى صنع الحبـال، كذلك المسلم ينبغى أن يدوم نفعه لنفسه ولغيره فى كل الأحوال وفى حياته ومن بعده ومن بعد مماته.

ويؤخذ من الحديث الشريف عدا ما سبق فوائد منها:

- أن اشراك الداعية للـمدعوين معه فيما يدور حوله الـكلام بالاستماع إلى أرائهم وإجاباتهم لما يلقيه عـليهم من أسئلة من حين لآخر من أهم ما يصرف الملل والسأم عنهـم ويجعلهم فى وعى دائم وشوق مستمرويثبت المعانى ويمكنها من نفوسهم.
- أن تمثيل الأمور المعنـوية والمعقولة بالصور المحسوسة مـن أيسر السبل وأفضلها لتقريبها من العقول وأزالة البعد والغموض عنها.

● أن الحيـاء من صفات المـؤمن بصفـة عامة ومن الـسمات الواضـحة لطالـب العلم مع شـيوخه وأساتـذته بصفة خـاصة. أن آيات الله ونعمه على الناس فى الآفاق وفى أنفسهم لا تعد ولا تحصى وكثير منها تحت بصر الإنسان وسمعه لكـنه لا يعيها ولا يلتفت إليها ولا يتبين عظـيم قدرها وجليـل أثرها إلا بعد تذكير وتنبيه وصدق الله حيث يقول: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1].

* * *

(١) سورة الذاريات: ٥٥.

الاعتدال فى عبادة الله والبعد عن المغالاة

فمعلوم أن الاعتدال والبعد عن المغالاة مسلك محمود فى كل الأعمال ولا سيما فى عبادة الله وطاعته، حيث يتمكن المعتدل فى عبادة الله من الاستمرار فى العبادة والمداومة على طاعة الله تعالى بشوق ونشاط ورغبة، بينما تنتهى المغالاة بصاحبها إلى الملل والسأم والقعود التام ثم الحرمان من الأجر والثواب، وينبهنا سيدنا رسول الله ﷺ ويرشدنا فى كثير من أحاديثه إلى هذا الأمر ومن ذلك هذا الحديث الذى يرويه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة».

لغة الحديث وبلاغته:

«ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» المشادة: المغالبة. يقال: شاده يشاده مشاده إذا قاواه، والمعنى: لا يتعمق أحد من الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، وهذه صورة نبوية بيانية لحال هؤلاء الذين يظنون أنهم بإكثارهم من العبادة واجتهادهم فى الطاعة ينتهون من شعائر الدين ويفرغون منها فيكون اليأس والملل والعجز التام والحرمان من الأجر والثواب مصيرهم بحال شخص ضعيف أو عاجز يحاول مصارعة بطل عظيم فيكون القهر والموت سبيله وهكذا الدين أكبر وأعظم من أن يبارى أو يتوهم الاتيان عليه لذا وجب التعامل معه بتواضع واعتدال.

«فسددوا» أى الزموا السداد، وهو الصواب من غير افرا ط ولا تفريط قال أهل اللغة: السداد: التوسط فى العمل.

«وقاربوا» أى إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.

«وأبشروا» أى بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذا لم يكن صنيعه لا يستلزم نقص أجره وقد ذكر ﷺ فى إحدى الغزوات «أن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حيث هم قد حبسهم العذر»، وقد أبهم المبشر به تعظيمًا له وتفخيمًا.

«واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة» أى استعينوا على مداومة العبادة بايقاعها فى الأوقات الطيبة المنشطة، ويراد «بالغدوة» السير أول النهار، وقيل: هى ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والروحة السير بعد الزوال، والدلجة سير آخر الليل، وقيل سير الليل كله، ولذا قيل «وشئ» أو لأن عمل الليل أشق من عمل النهار، وهذه الأزمنة الثلاثة تعد أطيب الأوقات التى يسهل ويحسن فيها السفر، وهذه صورة نبوية بيانية أخرى يصور فيها سيدنا رسول الله ﷺ المسلم الذى يعبد ربه باعتدال بدون مشقة ولا مغالاة مع تحينه للفرص الطيبة التى تعينه على طاعة ربه فيكتب له الاستمرار والفوز بثواب الله ورضوانه بحال المسافر إلى جهة بعيدة فلو أنه شق على نفسه وعلى راحلته وقطع الوقت كله فى السير لانتهى به الأمر إلى الهلاك مع راحلته بدون أن يبلغ الجهة التى يريد الانتهاء إليها لكنه لو أعطى لنفسه ولراحلته فرصة الراحة والتزود بالطعام والشراب من حين لآخر مع تحينه الأوقات الطيبة التى يطيب فيها السير لواصل المسيرة مع راحلته وبلغ قصده فى أمن وأمان.

وقد ذكر سيدنا رسول الله ﷺ هذا المعنى فى حديث آخر يقول فيه: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

وقد ذكر «ابن حجر العسقلاني» أن المناسبة بين هذا الحديث وما قبله ظاهره حيث تضمنت الأحاديث السابقة الترغيب فى: القيام والصيام والجهاد فأراد أن يبين أن الأولى للعامل بذلك أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدرج ليدوم عمله ولا ينقطع، هذا ولا يفهم مما سبق أن الإكثار من العبادة والاستزادة منها أمر غير مرغوب فيه، بل المقصود هو الإكثار الذى يبلغ حد المغالاة، فذلك هو غير المرغوب فيه لما يؤدى إليه من الملل والسأم والقعود عن العبادة كلية، ولذلك علق بعض العلماء على هذا الحديث قائلاً: «فى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع فى الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل فى العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدى إلى الملل أو المبالغة فى التطوع المفضية إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلى الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه فى آخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس، فخرج وقت الفريضة.

* * *

المبادرة بالأعمال الصالحة

روى البخارى عن عقبة بن الحارث رضى الله عنه قال: صليت وراء النبى ﷺ بالمدينة العصر فسلم ثم قام مسرعًا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته فقال: ذكرت شيئًا من تبر عندنا فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته.

اللغة والبيان:

«ففزع الناس من سرعته» أى خافوا، وكانت تلك عادتهم إذا رأوا منه غير ما يعهدونه خشية أن ينزل فيهم شئ يسوؤهم.

«. . . شيئًا من تبر» أى من ذهب غير مضروب.

«فكرهت أن يحبسنى» أى يشغلنى التفكير فيه عن التوجه والإقبال على الله تعالى، وفهم منه بعض العلماء معنى آخر وهو أن تأخير الصدقة تحبس صاحبها يوم القيامة.

ومن أهم ما يرشدنا ويدعونا إليه عمل الرسول ﷺ فى الحديث السابق أن المسلم الكيس هو الذى يسرع باستغلال فرصة عمل الخير بدون تأخير ولا تأجيل حتى يسد الباب على الشيطان الذى يحول دون ذلك كما علق به بعض المفسرين على قوله: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض..**﴾[١] الآية . . بأنه ينبغى الإسراع بفعل الصالحات قبل أن يحول بيننا وبينها ملك الموت بنزع روحنا، أو إبليس بوسوسته لنا، وكان صحابة سيدنا رسول الله ﷺ أكثر استجابة وتنفيذًا لذلك واستغلالاً للفرصة فى حينها قبل أن تضيع فلا تعود ثانية، فقد روى الشيخان عن جابر رضى الله عنه قال: قال

---

(١) سورة الحديد: ٢١.

رجل للنبى ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة، فألقى تمرات كن فى يده، ثم قاتل حتى قتل، وفى رواية من حديث أنس: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل».

وكثير من الناس تضيع منهم فرصة عمل الخير فلا يستغلونها فى حينها وإنما يؤخرونها للمستقبل على أمل أن يكون المستقبل أفضل وأن تكون ظروفه أحسن حيث تقل فيه الأعباء وتخف المسئوليات ويكثر المال ويتسع الوقت فتكون الفرصة أعظم فى الطاعة والتوبة وتعويض ما فات، وهذه أو هام فارغة وأمانى كاذبة فالمستقبل بيد الله **﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً...﴾** الآية، كما علمنا ﷺ فى أكثر من حديث له أن اليوم الذى مضى لن يعود ثانية وأن الذى يأتى بعده لن يكون أفضل منه من ذلك ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا» كما روى الترمذى من حديث أبى هريرة عن الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا (وهو الخلط فى الكلام والتغيير فيه) أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» فأجمل اللحظات بدون شك هى التى يعيش فيها الإنسان وما يلقاه المرء فى يومه من متاعب وهموم إنما هو قليل وضئيل بالنسبة لما ينتظره فى غد إن قدر له أن يمتد به العمر لغد، فيروى البخارى من حديث الزبير بن عدى قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه

لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ.

كما يرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى:

- عموم وجوب الانتظار بعد الصلاة.
- وإن تخطى المصلين جائز إذا اقتضت الضرورة ذلك.
- وأن التفكير فى الصلاة فى أمر لا يتعلق بها لا يفسدها ولا ينقص من كمالها.
- إسراعه ﷺ. ومبادرته بفعل الخيرات بدون توان ولا تأخير على الرغم من غفران الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- حرصه ﷺ على تعليم المسلمين كل ما ينفعهم وما يقربهم من الله.

* * *

السبعة الذين يظلهم الله فى ظله

روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة ربه. ورجل قلبه معلق فى المساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.

التوضيح اللغوى والبيانى:

«سبعة يظلهم الله فى ظله..» يراد بظل الله إما: ظل عرشه وقد ورد ذلك صراحة فى حديث آخر، وأما كرمه وحمايته وكنفه وستره كما يقال: هو فى ظل فلان. والتقييد بالسبعة لا مفهوم له حيث وردت روايات أخر تتضمن صفات أخرى غير المذكورة كحسن الخلق وإنظار المعسر وغيرهما.

«الإمام العادل» يراد به كل من ولى شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه وذلك ما نرجحه، فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» ومن أحسن ما فسر به العدل فى الحكم: إنه اتباع ما جاء فى حكم الله ورسوله بوضع كل شئ فى موضعه من غير إفراط ولا تفريط، وتقديم «الإمام العادل» على من بعده لعموم النفع به.

«وشاب نشأ فى عبادة ربه» تخصيص الشاب بالذكر لأنه أعظم مجاهدة لنفسه حيث نوازع الهوى بالنسبة له أكثر وفتنة الشيطان له أشد وكلما كان تعلق النفس أشد كان جهادها أعظم وكبح جماحها أثقل

وصدق الله: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[١].

«ورجل قلبه معلق فى المساجد» وذلك بمواظبته على أداء الصلاة جماعة فى المسجد، وكثرة انتظاره فى المسجد لأداء الصلاة يشتغل بذكر الله وتلاوة كلامه ومدارسة العلم، وفى تشبيه القلب فى شدة حبه للمسجد بالقنديل المعلق به ما يفيد ملازمة صاحبه للمسجد وعدم مفارقته له إلا للضرورة.

«ورجلان تحابا فى الله..» أى جمع بينهما الحب فى الله وحده وليس غرضًا من أغراض الدنيا ودام هذا الحب لم يقطعه إلا الموت بلقاء الله.

«ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله» أى منعته خشية الله وخوفه منه وحالت بينه وبين الوقوع فى هذا المأزق الخطير الذى لا يقع إلا فى النادر ويحتاج لجهاد كبير حيث الامتناع عن تلبية طلب ذات الأصل والمال والجمال، وقيل: يراد بطلبها منه: إرادة الزواج لكنه امتنع خوفًا من أن يشغله مالها وجمالها وحسبها له عن عبادة الله وطاعته، أو خوفًا من عدم تمكنه من الوفاء بمستلزماتها لاستغراقه فى طاعة ربه، لكن السياق وروايات أخرى ترجح أن المراد بطلبها منه: صنع المنكر.

«ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» أى بالغ فى التستر بما يتصدق به قليلاً كان أو كثيرًا فرضًا أو نفلاً حتى لو قدر أن يده اليسرى رجل يقف إلى جواره لما علم مقدار ما تصدق به، وذكر العلماء لإخفاء الصدقة مخافة الرياء والشهرة وجوهًا متعددة من أحسنها: أن يجئ الاخفاء عن طريق الشراء من صغار الباعة بما يطلبون

---

(١) سورة الحشر: ٩.

من ثمن أو بما يزيد عليه بنية ترويج بضاعتهم والتخفيف عنهم وإدخال البهجة والسرور إلى نفوسهم ويقول سبحانه ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم.. بما تعملون خبير**﴾[1].

وروى الإمام أحمد من حديث أنس عن النبى ﷺ: «إن الملائكة قالت: يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالت: فهل أشد من الحديد؟ قال: نعم: النار، قالت: فهل أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: فهل أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالت: فهل أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله».

«ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» أى ذكر الله بقلبه أو بلسانه حال كونه وحده لا يراه أحد حتى يكون أبعد عن الرياء ففاضت دموعه خوفًا من الله أو شوقًا إليه، وجعل الفيضان للعينين وهو فى الحقيقة للدموع من إسناد الحدث للمكان الذى يقع فيه مبالغة فى كثرته ويعرف ذلك بالمجاز العقلى لعلاقة المكانية، والأحوال السبعة الواردة فى الحديث باستثناء «الإمام العادل» و «رجل قلبه معلق فى المساجد» يدخل فيها النساء وتنطبق عليهن، لأن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من المسجد، كما يدخل النساء أيضًا فى «الإمام العادل» على التفسير الراجح فى أنه كل من يلى أمرًا للمسلمين فيعدل فيه، وكذلك المرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عمن ترعاه من زوج ومال وولد.

***

(١) سورة البقرة: ٢٧١.

تنافس المسلمين فى الخير وفى ذكر الله

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبى ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون، ويتصدقون، فقال: ألا أحدثكم بما أن أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نسبح ثلاثًا وثلاثين ونحمد ثلاثًا وثلاثين ونكبر أربعًا وثلاثين، فرجعت إليه، قال: تقول: سبحان الله والحمد لله حتى يكون منهن كلهن ثلاث وثلاثون.

مفردات الحديث:

«أهل الدثور من الأموال» أى الأغنياء أصحاب الأموال الكثيرة، ومفرد «دثور» دثر»، و«من» فى «من الأموال» للبيان والتوضيح.

«بالدرجات العلى والنعيم المقيم» أى نالوا الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله على أعمالهم الطيبة ووصلوا بعد ذلك ثم بفضل الله إلى عظيم القدر وارتفاع المنزلة وفازوا بنعيم الجنة الدائم الذى لا يزول ولا ينتهى فوصف النعيم «بالمقيم» لإفادة استمراره ودوامه بخلاف نعيم الدنيا الذى لا يكون له دوام ولا اكتمال.

الشرح والبيان:

قوله ﷺ: «وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه» يفيد ظاهر العبارة أفضلية الذاكرين لله على من سبقهم وعلى من بعدهم ممن لم يصنعوا مثلهم، بينما تفيد العبارة السابقة عليها: «أدركتم من سبقكم» مساواتهم

لمن سبقهم من المتصدقين فى الفضل والثواب بذكرهم لله ولا منافاة ولا تعارض فى ذلك، فالادراك لا يلزم منه المساواة فقد يدرك ثم يسبق، وعلى هذا فالتقرب إلى الله بالذكر راجح على التقرب إليه ببذل الأموال.

قوله ﷺ: «تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين» يفيد تقييده ﷺ هذه الأذكار بقوله: «خلف كل صلاة بأنه ينبغى الاتيان بها بمجرد الانتهاء من الصلاة بدون فاصل إلا ما يكون من سهو للحظات معدودة، أو لقراءة آية الكرسى وذلك عقب الصلوات المفروضة دون النافلة، و، يمكن للمسلم أن يقدم التحميد على التسبيح لما ورد عنه ﷺ فى حديث آخر: «لا يضرك بأيهن بدأت» لكن الأفضل التزام هذا الترتيب حيث ينبنى بعضه على بعض، فالتسبيح يكون أولاً إذ يتضمن نفى النقائص عنه سبحانه، ويليه التحميد، الذى يثبت الكمال لله، ثم يليه التكبير الذى يفيد أنه لا شئ أكبر منه، ثم يختم بالتهليل الدال على تفرده سبحانه بجميع ذلك. ويمكن أيضًا الزيادة فى صيغ الذكر السابقة على العدد المذكور «ثلاثًا وثلاثين» لكن الأفضل التقيد والالتزام بالعدد المذكور من باب التأدب والالتزام فى الاقتداء فضلاً عن وجود حكمة لهذا العدد لا يعلم بها إلا الله وحده، ولذلك رأى كثير من أهل العلم أن المسلم يثاب على عده لهذه الأذكار وحصره لها بأصابعه أو على المسبحة أو بأية كيفية أخرى.

ويرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

- إن المسلمين فقراء وأغنياء ينبغى أن يتنافسوا فى الخير وأن يتسابقوا إليه وأن هذا التنافس من الغبطة المحمودة.
- أن وجوه الخير وسيلة لا حصر لها، وليست متمثلة فى بذل المال

وحده وعلى كل مسلم أن يسهم فى فعـل الخير على قدر استطاعته وبما **أتاه الله من نعم.**

● **أن نيل ثواب الله ليس بكثرة الأعمال ولا بضخامتها، فرب عمل** يسير لا يـكلف صاحبه تـعبًا ولا مشقة يـصل به إلى الدرجات الـعلى والنعيم المقيم كذكر الله.

نسأل الله العون على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

* * *

من أدعية الرسول ﷺ في الصلاة

روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يدعو فى الصلاة: اللهم إنى أعوذ بك؛ من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم أعوذ بك من المأثم والمغرم، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم، فقال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف.

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى، قال: قل: اللهم ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم.

اللغة والبيان:

«وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال» تقييده بالدجال للفرق بينه وبين عيسى عليه السلام يلقب كل منهما بالمسيح، وذكر أهل العلم تفسيرات متعددة لإطلاق هذا اللقب على كل منهما، فقيل بالنسبة للدجال إنه لقب بذلك لأنه ممسوح العين، أو لأن أحد شقى وجهه خلق ممسوحًا لا عين فيه ولا حاجب، أو لأنه يمسح الأرض إذا خرج، وبالنسبة لعيسى عليه السلام: سمى بذلك لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل: لأن زكريا مسحه، وقيل: كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقيل: كان يمسح الأرض بسياحته، وقيل المسيح: الصديق، وقيل: غير ذلك.

«وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات» قيل عن فتنة المحيا: ما يعرض للإنسان فى حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات

وأعظمها والعياذ بالله أمر الخاتمة عند الموت، وعن فتنة الممات: يراد بها الفتنة عند الموت وقد أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك أو يراد بفتنة الممات: فتنة القبر، وقد ورد فيما رواه البخارى عن أسماء رضى الله عنها: «إنكم تفتنون فى قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال»، ولا يتعارض هذا التفسير «لفتنة الممات» بأنه فتنة «القبر» مع ما سبق من التعوذ من عذاب القبر حيث إن العذاب ناشئ عن الفتنة. فالفتنة سبب والعذاب مسبب وكلاهما خلاف الأخر.

«اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم» يراد بالمغرم: الدين الذى يعجز صاحبه عن أدائه وقد استعاذ منه ﷺ فى حديث آخر فى قوله ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

وفى قوله ﷺ إجابة لمن سأله عن سبب كثرة استعادته من المغرم «أن الرجل إذا غرم..» تفسير واضح لسبب كثرة تعوذه ﷺ من المغرم حيث يجعله المغرم والدين بهذه الصفات وهى من صفات المنافقين كما ورد ذلك صريحًا فى قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

«اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا» أى بفعل وارتكاب ما يوجب العقاب من الذنوب والآثام، وفى ذلك إشارة واضحة إلى أن من شأن الإنسان التقصير والوقوع فى المخالفات مهما عظم قدره عند الله.

«ولا يغفر الذنوب إلا أنت» فى ذلك إقرار بوحدانية الله واستجلاب لمغفرته، وفى ذلك دلالة واضحة على أن من شأن الإنسان الاكثار والاستمرار على استغفار ربه فى كل الأحوال مع التواضع والتذلل وإظهار العجز والضعف.

«فاغفر لى مغـفرة من عندك» أى مغفرة عظيمة لا يـقدر عليها ولا يعلم حقيقـتها إلا أنت وحدك و،يرشد إلى ذلك تنكيـر كلمة «مغفرة» ووصفها بأنها من عند الله، كما قيل فى تـقييد المغفرة بكونها من عند الله بأنها المغفرة الـتى تكون تفضلاً منه سبحانه وإن لـم يكن للفرد من الأعمال ما يجعله مستحقًا لها.

وقد ذكر أهل العلم تفسيرات متعددة لاستعاذته ﷺ مما سبق وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخـر منها: إنه يعلم أمته ﷺ كيف تدعوَ أو يقصد الاستعاذة لها من ذلـك، ومنها: أن العبد لا ينقطع أبدًا عن دعاء ربـه والتضرع إلـيه وطلب الغـفران منه مَـهما كان حـاله من الصلاح والتقى مع التواضع والتذلل وإظهار العبودية وإن فى ذلك زيادة فى حسناته ورفعًا لدرجاته.

ونخرج من كلامه ﷺ عدا ما سبق بما يلى:

● إثبات نعيم القبر وعذابـه وقد ورد عنه ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النيران».

● استحباب سؤال الإنسان أهل العلم عما لا يعرفه ولا سيما فيما يتعلق بأمر دينه.

● مداومة العبد على ذكر الله فى كل الأوقات وفى جميع الأحوال بلا توقف ولا انقطاع مع إجلال الله وتعظيمه والإقبال عليه بكل تضرع وخوف منه.

* * *

١ - فضل صلاة الجماعة

روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة. وروى البخارى أيضًا عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ يقول: صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة، وروى البخارى كذلك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسة وعشرين ضعفًا وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة.

التوضيح اللغوى والبيانى:

«الفذ» أى المنفرد يقال: فذ الرجل من أصحابه إذا بقى منفردًا وحده.

«وذلك أنه إذا توضأ فأحسن. . الخ» إحسان الوضوء أى إسباغه وما بعده من التوجه إلى المسجد بقصد الصلاة وكثرة الخطى علة لتضعيف الدرجات و «الخطوة» بضم الخاء ما بين القدمين وبفتحها: واحدة الخطى.

«مادام فى مصلاه» أى فى الموقع الذى أدى فيه الصلاة. ويستمر الأجر المذكور له بانتقاله لموقع آخر أو لبقعة أخرى فى المسجد نفسه.

هذا والأحاديث المذكورة تحض المسلمين وترغبهم فى صلاة الجماعة فى بيوت الله لمنافعها وآثارها الكثيرة الدينية والدنيوية وأهمها: تكفير السيئات ومضاعفة الحسنات وجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم

ويدرك هذه الآثار وخلافها الواحد منا من أول لحظة يضع قدمه فيها فى بيت الله لأداء الصلاة حيث تعترينا خفة وتشملنا سعادة وينزاح عن كواهلنا هموم ومتاعب وذنوب وآثام وصدق الله: **﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع.. بغير حساب﴾**(١).

وقد ذكرت تفسيرات متعددة لاختلاف درجات التضعيف بين الروايتين خمسًا وعشرين مرة وسبعًا وعشرين أخرى منها.

أن العدد لا مفهوم له وأن القليل لا ينفى الكثير، أو أن اختلاف الأجر بحسب قرب المسجد وبعده(٢) فكلما بعد المسجد وكثر المشى زادت الحسنات كما ورد فى حديث أبى موسى برواية البخارى عن النبى ﷺ قال: «أعظم الناس أجرًا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذى يصلى ثم ينام».

وقيل: اختلاف درجات المضاعفة مرده لحال المصلى من الخشوع وغيره أو بإدراكه لبعض الصلاة أو جميعها أو بحسب قلة الجماعة وكثرتها.

وقيل: السبع والعشرون مختصة بالفجر والعشاء أو بالفجر والعصر وهى الأوقات التى يكون فيها التكاسل وتثقل على كثير من الناس بسبب النوم والظلمة ولذلك اختصها ﷺ بمزيد من الاهتمام والتنبيه وما لها من عظيم الأجر فى أحاديث أخر كقوله ﷺ فيما يرويه

---

(١) سورة النور: ٣٦ - ٣٨.

(٢) وقلة وطول الانتظار بالمسجد لأداء الصلاة.

كما رواه أحمد وأصحاب السنن ابن خزيمة وغيره من حديث أبي بن كعب مرفوعًا: «صلاة الرجل مع الرجل أزكي من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكي من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلي الله».

البخارى عن أبى هريرة «لو يعلـم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهـموا، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إلـيه، ولو يعلمون ما فى الـعتمة والصبح لأتوهـما ولو حبواً» أى لو يعلمون مـا فى هذه الأمور من الفضل وعظيم الأجـر لتنافسوا عليهـا وتسابقوا إليـها وهى: الأذان والوقوف فى الـصف الأول خلف الإمام، والتـهجير أى: التـبكير إلـى أداء الصلوات فى المـسجد أو أداء صلاة الظهر التى تكون فى التهـجير أى مع إشتداد الحر، وصلاة العتمة وهى العشاء وصلاة الفجر، وقيل: السبع والعشرون تختص بالصلوات التى يـجهر فيـها بالقراءة وهـى: الفجر والمـغرب والعشـاء، والخمس والعشرون فى السرية وهى صلاة الظهر والعصر، وقيل غير ذلك.

وقد أحصى العلمـاء لصلاة الجماعة فى المسجد فضائـل كثيرة تبين من النظر فيها أو فى بعضها سـر مضاعفة الله الثواب والأجر عليها من هذه الفضائل:

- التبكيـر فى التوجه إلى المسجد بـعد التطهر والوضوء لـقصد الصلاة جماعة مع المسلمين.
- صلاة الملائكـة واستغفارهم وشهادتـهم لمن ينتظر صلاة الجـماعة فى المسجد كما ورد فى الحديث الشريـف، وقد استنبط من ذلك بعض العلماء أفضلـية الصلاة على بقية العبادات، وتفضـيل الصالحين من النـاس على الملائـكة حيـث يحصـل الصالحون مـن الناس الـثواب والأجر بعبادتهم بينما يشتغل الملائكة بالدعاء والاستغفار لهم.
- حصول الخشوع والأمن من السهو غالبًا ومن صفة سالنفاق والتدرب على تجـويد القراءة وحسن الأداء وتمـام الصلاة، ولذلك تـعد صلاة الجماعة من أفضل السبل لتحفيظ القرآن وتجويده واتيان الصلاة على

وجهها الصحيح.

- الافادة من الإجتماع على الذكر والدعاء واقتداء المقصر بالمعتدل.
- حصول التآلف والتكامل والود والمحبة بين المسلمين بسؤالهم عمن غاب ومواساة من نزل به مرض أو حل به سوء وتهنئة من أصابه خير وفي ذلك زيادة وصل المسلمين وعظيم تعارفهم تحقيقًا لقوله عز من قائل: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم.. لتعارفوا.. إن الله عليم خبير**﴾[1].

* * *

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

٢ - فضل صلاة الجماعة

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء.

التحليل اللغوى والبيانى:

«والذى نفسى بيده» أى بقدرته يتصرف فيها كيف يشاء، وكان ﷺ كثيرًا ما يقسم بهذا القسم، وإقسامه ﷺ مع كون المقسم عليه غير منكر ولا مشكوك فيه دليل واضح على أهمية وخطر المقسم عليه ألا وهو التخلف عن أداء الصلاة جماعة فى المسجد.

«لقد هممت أن آمر بحطب ليحطب» أى عزمت واللام واقعة فى جواب القسم ومعنى «يحطب» أى يكسر ليصير سهل الاشتعال.

«ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم» أى أخالف ما قمت به من إمامة المسلمين متوجهًا إلى هؤلاء، أو أخالف ظنهم فى اشتغالى بالصلاة قاصدًا إياهم والتقييد بالرجال يخرج الصبيان والنساء، «أحرق» بتشديد الراء المكسورة يفيد المبالغة فى الحرق، كما يدل إيقاع التحريق على البيوت أن التحريق يشمل كل ما يتعلق بهم من نفس ومال ومتاع وليس محددًا بشئ معين.

«والذى نفسى بيده لو يعلم.. عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين...» فى تكرير القسم إعلام بشدة أهمية المقسم عليه، ويراد بالعرق: العظم عليه بقايا اللحم، وبالمرماتين: تثنية مرماه: ما بين ظلفى الشاة من اللحم، ووصف العرق بالسمن والمرماه بالحسن: لإفادة

شدة اهتمام المتوجه إلى المسجد من أجلهما وإغرائه بهما.

هذا والحديث الشريف يتوجه بالتهديد الشديد الذى ينبئ عن الإثم الكبير لتارك أداء الصلاة جماعة فى كل الصلوات بصفة عامة وفى صلاة العشاء والفجر بصفة خاصة[١]، كما يتوجه الحديث الشريف بالاحتقار الشديد والامتهان الزائد لكل من يتخلف عن حضور الجماعات لاشتغاله بمتاع الدنيا الرخيص، أو يكون توجهه لحضور الجماعة لا لنيل ثوابها العظيم وإنما لحصوله على مكسب مادى رخيص.

ويؤخذ من الحديث الشريف عدا ما سبق دروس وفوائد منها:

● فضل صلاة الجماعة مع المسلمين فى المسجد، وأنه لا يصح التخلف عنها حتى لأصحاب الأعذار الذين يتمكنون بوسيلة أو بأخرى من التوجه للمسجد إلا من لم تمكنهم ظروفهم من الحركة والمشى لما رواه أحمد والحاكم وابن خزيمة عن ابن أم مكتوم أن رسول الله ﷺ استقبل الناس فى صلاة العشاء: فقال: لقد هممت أن آتى هؤلاء الذين يتخلفون عن الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم، فقام «ابن أم مكتوم» فقال: يارسول الله لقد علمت ما بى وليس لى قائد «زاد الإمام أحمد: «وإن بينى وبين المسجد شجرًا ونخلاً ولا أقدر على قائد كل ساعة. قال: أتسمع الإقامة قال: نعم، قال: فاحضرها - ولم يرخص له «ولابن حبان من حديث جابر قال: أتسمع الأذان؟ قال: نعم، قال: فأتها ولو حبواً» وذكر كثير من العلماء أنه كان لا يشق عليه المشى وحده ككثير من العميان. وإذا كان ﷺ لم يرخص لابن أم مكتوم بالتخلف عن

---

(١) وقد روي البخاري في حديث آخر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ليس صلاة أثقل علي المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم، ثم آمر رجلاً يؤم الناس ثم آخذ شعلاً من نار فأحرق من لا يخرج إلي الصلاة بعد.

صلاة العشاء جماعة فى المسجد على ما به من عـذر فكيف الحال بمن يتخلفون عن حضور معظم الجماعات فى صلوات الليل والنهار ولا عذر لهم، وقد يكون المسجد إلى جوارهم وأقرب ما يكون منهم؟.

- ومن دروس الحديث الواضحة: أنه يمكن للداعية والموجه أن يقدم الوعيد والتهديد على العقوبة، من باب درء المخاطر الجسيمة والعقوبات الكبيرة بالزجر الهين والعقوبة الخفية.
- جواز مباغته الولاة والمسؤولين وأخذهم أصحاب الجرائم والمفسدين على غرة بعد تقديم النصائح لهم وعدم تنفيذهم لها.
- جواز إمامه المفضول مع وجود الفاضل إذا اقتضت الضرورة ومصلحة المسلمين ذلك.

* * *

يوم الجمعة عيد المسلمين الأسبوعى

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها».

فضائل يوم الجمعة:

يعد يوم الجمعة من نعم الله الكبرى على المسلمين التى ينبغى استغلالها فى التقرب إلى الله تعالى بعمل الصالحات وذكر الله وتطهير قلوبهم ونفوسهم من كل ما خالطها من إثم على مدى أيام الأسبوع، فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، و هذا اليوم كما نرى فى الحديث الشريف الذى بين أيدينا أن فيه ساعة الإجابة التى لم يحدد وقتها حتى يجتهد المسلمون فى عبادة الله وذكرهم له طيلة اليوم ومن الفضائل العظيمة ليوم الجمعة أيضًا أن المسلم الذى يحسن إستغلال هذا اليوم والانتفاع به فى عبادة الله وذكره وفعل الخيرات وقضاء مصالح الناس وتنفيس الكرب عن المكروبين يغفر الله له ما يقع منه من ذنوب وما يرتكبه من صغائر حتى الجمعة التالية مادام يجتنب الكبائر لما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

من السنن والآداب فى يوم الجمعة:

أما السنن والآداب التى ينبغى على المسلمين أن يراعو ها حتى يتحقق لهم النفع بفضائل يوم الجمعة ويجنبوا ثماره فمنها:

الاغتسال والتطيب وارتداء الطاهر والنظيف من الثياب والتبكير بالتوجه إلى المسجد ثم أداء تحية المسجد والاستماع لخطبة الجمعة لما رواه البخارى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى» وتتفاوت درجات المصلين فى الأجر والثواب من حيث سبقهم إلى دخول المسجد فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنه، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

ومن آداب يوم الجمعة: الإكثار من ذكر الله والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ فقد روى أبو داود عن أوس بن أوس قال: قال ﷺ: «إن من أقل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليي».

وإذا كان واجبًا على العبد أن يغتنم كل يوم جديد من عمره فيما يقربه من ربه بقدر ما يستطيع لما ورد فى الخبر: «ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادى مناد: يابن آدم: أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمنى فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة».

فإن أولى الأيام وأجدر الفرص استغلالاً فى نيل مرضاة الله يوم الجمعة الذى تقع منزلته من أيام الأسبوع كمنزلة شهر رمضان، من

جميع شهور السنة، وتعد ساعة الإجابة فيه كليلة القدر من شهر رمضان، فإذا صح يوم الجمعة للمسلم صح له الأسبوع كله، كما إذا صح له رمضان صحت له السنة كلها، وإذا صح حجه صحت حياته جميعها لقوله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته فى يوم الجمعة وليلتها وفى جميع الأيام والليالى.

* * *

استدفاع البلاء بذكر الله

روى البخارى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ فقام قيامًا طويلاً نحوًا من قراءة سورة ثم ركع ركوعًا طويلاً ثم رفع فقام قيامًا طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قيامًا طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع فقام قيامًا طويلاً وهو دون القيام، ثم ركع ركوعًا طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد ثم انصرف، وقد تجلت الشمس فقال ﷺ: «أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله، قالوا: يارسول الله، رأيناك تناولت شيئًا فى مقامك ثم رأيناك كعكعت، قال ﷺ: إنى رأيت الجنة فتناولت عنقودًا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يارسول الله؟ قال: بكفرهن، وقيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط.

لغة الحديث:

قوله: «ثم سجد» أى سجدتين.

قوله: «وهو دون القيام الأول» يفيد أن الركعة الثانية كانت أقصر من الأولى.

وقوله: «كعكعت» أى تأخرت، يقال: كع الرجل: إذا نكص على عقبيه.

قوله ﷺ : «إنى رأيت الجنة فتناولت عنقودًا» قيل: إنها رؤية عين، وقيل: إن الجنة مثلت له ﷺ فى الحائط كما تنطبع الصورة فى المرآة فرأى جميع ما فيها، وقال القرطبى: إن الله تعالى خلق لنبيه ﷺ إدراكًا خاصًا به فأدرك به الجنة والنار على حقيقتها.

قوله ﷺ : «فتناولت عنقودًا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» قيل: «لو أصبته» أى لو تمكنت من قطفه لفعلت، لكن لم يقدر لى قطفه. وقيل إنه ﷺ لم يأخذ العنقود لأنه من طعام الجنة وهو لا يفنى، والدنيا فانية لا يجوز أن يؤكل فيها ما لا يفنى، وقيل: لأن الناس لو رأوه لكان من إيمانهم بالشهادة لا بالغيب، وقيل: لأن الجنة جزاء الأعمال والجزاء بها لا يقع إلا فى الآخرة.

قوله ﷺ : «ورأيت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع». أى لم أر منظرًا أفظع من المنظر الذى شاهدته للنار فى ذلك اليوم.

قوله ﷺ : «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان» يراد بالكفر الجحود والنكران، وليس الكفر بالله، ويراد بالعشير: الزوج، وبكفر الإحسان إحسان الزوج، فهو بيان وتفسير لكفر العشير.

قوله ﷺ : «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط».

الخطاب فى قوله: «أحسنت» لكل من يتأتى منه الخطاب وليس مخاطبًا بعينه فهو خاص لفظًا عام معنى، ويراد بالدهر: مدة عمر الرجل أو الزمان كله مبالغة فى كفرانهن.

ما يرشد إليه الحديث:

ويرشد الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

● المبادرة إلى طاعة الله والتوجه إليه بالذكر والدعاء عند وقوع ما يحذر

منه.

- دفع البلاء بذكر الله وطاعته.
- ما كان عليه ﷺ من حرص على تعليم الأمة كل ما ينفعها وإبعادها عن كل ما يضرها، وينبغى على الدعاة والمصلحين وأولى الأمر شدة الاقتداء به ﷺ فى ذلك.
- أنه يسمح للمتعلم أن يراجع معلمه وأستاذه فيما لا يتمكن من فهمه وما يريد أن يعرف الحكم فيه.
- إن من شكر العبد لربه شكره لمن أجرى النعمة على يديه وجعله سببًا فيها، وإن التقصير فى ذلك يعدّ جحودًا ونكرانًا.
- إن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان.

* * *

من أدعية الرسول ﷺ فى التهجد

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ولك الحمد، أنت ملك السكوات والأرض ولك الحمد، أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق وقولك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت، أولا إله غيرك، قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو مية: ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله ﷺ : «أنت قيم السموات والأرض» أى قائم بأسباب الخلق وتدبير أمورهم.

قوله ﷺ : «أنت نور السموات والأرض» أى منورهما وبك يهتدى من فيهما، وقيل معناه: أنت المنزه عن كل عيب، يقال: فلان منور، أى مبرأ من كل عيب، وقيل: هو مدح كما تقول: فلان ينور البلد أى يزينه.

قوله ﷺ : «أنت الحق» أى المتحقق الوجود الثابت بلا شك فيه، ويقول القرطبى: هذا الوصف خاص به سبحانه لا يوصف به غير الله إذ وجوده لنفسه، فلم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم، بخلاف غيره، وقيل معناه: أنت الحق بالنسبة إلى من يدعى فيه أنه إله أو بمعنى أن من

سماك إلهًا فقد قال الحق.

قوله ﷺ : «وعدك الحق» أى الثابت وتعريفه لإفادة أن وعد الله لا يتخلف بخلاف وعد غيره، وتنكير ما جاء بعد ذلك لإفادة التعظيم.

قوله ﷺ : «ولقاؤك حق» قيل يراد به البعث والحساب، وقيل يراد به الموت، لكن الأول أرجح.

قوله ﷺ : «والجنة حق والنار حق» يدل على وجودهما الآن.

قوله ﷺ : «ومحمد ﷺ حق» بعد «والنبيون» من ذكر الخاص بعد العام تعظيمًا له ﷺ وإفرادًا له بالذكر، ولبيان منزلته العظمى ومكانته بين الأنبياء والرسل عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

قوله ﷺ : «والساعة حق» أى يوم القيامة وإطلاق الساعة عليها من إطلاق الجزء على الكل. ووصف جميع ما سبق بالحق لإفادة وجوب التصديق بها، وتكرار لفظ (الحق) للمبالغة فى التأكيد.

قوله ﷺ : «اللهم لك أسلمت» أى انقدت وخضعت.

قوله ﷺ : «وبك آمنت» أى صدقت.

وقوله ﷺ : «وعليك توكلت» أى فوضت الأمر لك.

وقوله ﷺ : «وإليك أنبت» أى رجعت إليك فى تدبير أمرى.

وقوله ﷺ : «وبك خاصمت» أى بما أعطيتنى من البرهان وبما لقنتنى من الحجة.

وقوله ﷺ : «وإليك حاكمت» أى احتكمت إليك وجعلتك الحكم فى كل من جحد الحق.

والتعبير بالفعل الماضى وإيثاره لإفادة التحقق والوقوع كما يفيد تقديم الجار والمجرور فى: «لك وبك وعليك وإليك وبك» اختصاص ذلك بالله وحده وقصره عليه.

وقوله ﷺ : «فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت، وما أعلنت» يفيد دعاؤه ﷺ بذلك وتواضعه وتعظيمه لله سبحانه وتعليم الأمة لتقتدى به فى ذلك حيث قد غفر الله له عليه الصلاة والسلام ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وذكر الكرمانى أن الحديث الشريف يعد من جوامع كلمه ﷺ لأن لفظ «القيم» يشير إلى أن وجود الجواهر منه سبحانه، ولفظ «النور» يفيد أن الأعراض أيضًا منه، ولفظ «الملك» يفيد أنه حاكم عليها إيجادًا وإعدامًا يفعل ما يشاء، وكل ذلك من نعم الله على عباده التى تستوجب تخصيصه بالحمد، وقوله: «أنت الحق» إشارة إلى المبدأ، وقوله: «قولك حق» إشارة إلى المعاش، وقوله: «والساعة حق» إشارة إلى المعاد، وفيه الإشارة إلى النبوة والجزاء ثوابًا وعقابًا، ووجوب الإيمان والإسلام والتوكل والإنابة والتضرع إلى الله والخضوع له.

* * *

قهر الشيطان بذكر الله والصلاة

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحل عقده فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان.

اللغة والبيان:

«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم..» يراد بالشيطان إما القرين الذى يقترن بكل فرد ولا سيما من يغفل ويعرض عن ذكر الله كما قال تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين**﴾(١) وقيل يراد به: إبليس رأس الشيطان، وقد نسب الفعل إليه لكونه يدعو إليه به.

«على قافية رأس أحدكم» أى على مؤخرة رأسه، فقافية كل شئ آخره ومنه قافية القصيدة، ويراد بأحدكم جميع المخاطبين ويستثنى منهم من ورد فى حقه أنه يحفظ من الشيطان كالأنبياء ومن يشملهم قوله سبحانه: ﴿**إن عبادى ليس عليكم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾(٢)، وكمن يقرأ آية الكرسى عند نومه فقد ثبت أنه يحفظ من الشيطان حتى يصبح.

«يضرب على مكان كل عقدة» قيل يضرب بيده على كل عقدة تأكيدًا أو إحكامًا لها قائلاً ذلك والضرب على ذلك يكون حسيًا، وقيل: إن الضرب معنوى يراد به: حجب الحس عن النائم حتى لا

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦.

(٢) سورة الحجر: ٤٢.

يستيقظ ومنه قوله تعالى: ﴿**فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا**﴾[1] أى حجبنا الحس أن يدخل آذانهم فيتنبهوا.

«عليك ليل طويل فارقد» أى باق أمامك من الليل وقت فاستمر فى نومك. ولا يختص وقوع ذلك بالنوم ليلاً بل يكون فى النوم نهارًا.

وقد اختلف فى هذه العقد فقيل: إن ذلك على سبيل الحقيقة كما يحدث فى السحر حيث تحضر المرأة خيطًا وتعقد منه عقدة تتكلم عليها بالسحر فيتأثر المسحور عند ذلك وفى ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن شر النفاثات فى العقد**﴾[1]، وقيل إنه من قبيل المجاز شبه فعل الشيطان بالنائم بما يفعله الساحر مع المسحور، وقيل إنه كناية عن تثبيط الشيطان للنائم بالقول المذكور. وقد ذكر العلماء تفسيرات متعددة لكون العقد ثلاثًا منها: أن ذلك للتأكيد، أو لصرفه عن ثلاثة أشياء: الذكر والوضوء والصلاة.

«فإن صلى انحل عقده» ظاهر العبارة أن جميع العقد تنفك بالصلاة لمن لم يكن بحاجة إلى الطهارة كمن نام متمكنًا من نفسه مثلاً ثم انتبه فصلى من قبل أن يذكر أو يتطهر فإن الصلاة تجزئة فى حل عقده كلها لأنها تستلزم الطهارة وتتضمن الذكر، أما من كان بحاجة إلى الطهارة فإن عقدة تحل بذكره لله والثانية تحل بوضوئه والثالثة وهى الأخيرة تحل بالصلاة وبانحلالها تنحل العقد كلها.

«فأصبح نشيطًا طيب النفس» أى لسروره بما وفقه الله له من الطاعة وبما وعده من الثواب وبما زال عنه من عقد الشيطان قال تعالى: ﴿**إن**

(١) سورة الكهف: ١١.

(٢) سورة الفلق: ٤.

ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم قيلاً﴾[(١)].

«وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» أى بتركه ما كان يعتاد عليه من فعل الخير، وذكر بعض العلماء أن هذا الذم يتوجه لمن لم يقم إلى صلاته وضيعها، أما من كان متعودًا على الصلاة المفروضة أو النافلة بالليل فغالبته عينه فنام أو منعه المرض العضال أو العذر القاهر عن الاستيقاظ للصلاة فإن الله يكتب له أجر صلاته.

ويرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس وفوائد منها:

- اقتران الشيطان وتعلقه بالمرء ليلاً ليحرمه من نيل ثواب الله العظيم بعدم التهجد أو بالكسل عن صلاة الفجر.
- إن العبادة وذكر الله تجعل الفرد نشيطًا مسرورًا والتكاسل عن العبادة وذكر الله يجعله خاملاً محزونًا.
- فضل صلاة الليل المفروضة والنافلة.
- حرص المرء على عدم الانقطاع أو الغفلة عن ذكر الله بالسبل المتعددة والمتنوعة كتلاوة كلامه ومدارسة العلم والتفقه فيه وذكر الله بأسمائه الحسنى والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.

* * *

---

(١) سورة المزمل: ٦.

هروب الشيطان عند سماع الأذان والإقامة

فمن أفضل السبل وأقوى الأسلحة التى يستعين بها العبد على مواجهة الشيطان وطرده ذكره لله فى السر والعلن، ومن المعلوم كما ذكر ﷺ أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق وأنه لا يتركه حتى وهو يعبد ربه وأقرب ما يكون منه فى الصلاة يحاول أن يفسدها عليه ويخرجه منها بدون ما فائدة بما يحركه فى نفسه من هموم الدنيا ومشاغلها القريبة والبعيدة والمهمة وغير المهمة، وذلك أمر معلوم لكل منا حيث أنه بمجرد دخول الواحد منا فى الصلاة ووقوفه بين يدى الله تدور بذهنه وتتحرك فى خواطره كثير من الهموم والأعمال حتى ما لم يكن لها من عقله نصيب قبل دخوله فى الصلاة والتغلب على هذه الحالة التى تحدث لكثير منا إنما يكون بالاستغراق فى الصلاة بالتأمل والتدبر فيما يتلوه المرء وما يسمعه من قرآن وما يردده من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير.

ونرى ذلك بوضوح فى هذا الحديث الشريف الذى يذكر فيه ﷺ أن أفضل وأعلى صيغ الذكر التى تفزع الشيطان وترهبه فيسرع بالفرار والبعد هى صيغة الأذان والإقامة فإذا ما انتهى كل منهما عاد الشيطان ليواصل ممارسة حرفته فى الوسوسة على المصلين بتذكيره لهم بالصوارف والشواغل حتى يصرف أذهانهم جملة عن الصلاة، فيروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: أذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى».

لغة الحديث:

«له ضراط» قيل إن ذلك على سبيل الحقيقة، لكن الأرجح أنه تمثيل لشدة نفوره وفزعه ولذلك يقول الطيبى: شبه شغل الشيطان نفسه عن سماع الآذان بالصوت الذى يملأ السمع ويمنعه عن سماع غيره ثم سماه «ضراطًا» تقبيحًا له. والشيطان قيل يراد به: إبليس وقيل: كل متمرد من شياطين الجن والإنس، وقيل وهو الأرجح يراد به: شيطان الجن خاصة.

«حتى لا يسمع التأذين» قيل إنه يعتمد إخراج ذلك ليشغل بسماع الصوت الذى يخرجه عن سماع المؤذن، أو يصنع ذلك استخفافًا كفعل بعض السفهاء أو يتعمد ذلك ليقابل الصلاة وما تبنى عليه من طهارة بالحدث، والراجح أن هذا الصوت الذى يحدث منشؤه ما يعتريه من شدة خوف وهلع كما يحدث لكثير من الناس الذين يعتريهم خوف شديد يصابون بسببه بالمرض وكثرة التبول وعدم القدرة على ضبط النفس.

«فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر» أى يعود عند الانتهاء من الآذان والفراغ منه ثم يبتعد ثانية عند التثويب أى عند الإقامة.

«حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه» أى يعود بعد انتهاء الإقامة لمباشرة نشاطه من شغل المصلين والوسوسة لهم بكل ما يحرمهم من الإفادة من صلاتهم والانتفاع بها.

«ويقول: أذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر» أى يأخذ يذكره بكل أموره ومشاكله المعلومة والمجهولة حتى التى لم يكن لفكره بها تعلق قبل دخوله فى الصلاة.

وقد ذكر العلمـاء أسبابًا متعددة لهروب الشيـطان عند سماع الأذان والإقامة منها: أنـه يهرب كى لا يكون يوم القيامة مـع الذين يشهدون للمؤذن مع الذين يشهدون له ممن سمعوا صوته، وورد فى الحديث الذى يروويـه البخارى عـن أبى سعـيد الخدرى عن رسـول الله ﷺ وجاء فيه: «ارفع صوتـك بالنداء فإنه لا يسمـع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شئ إلا شـهد له يوم القـيامة» ومنهـا: أن للأذان هيبة يـشتد انزعاج الـشيطان بـسببهـا لأنه لا يكاد يـقع فى الأذان رياء ولا غـفلة بخلاف الصلاة التى يقع فيها ذلك فكانت فرصته بالوسوسة فى الصلاة أشد منها فى الأذان، وقيل غير ذلك.

ويؤخذ من الحديث الشريف من الفوائد عدا ما سبق:

- إن الشيطان أقرب ما يكون من الإنسان ولا سيما فى الصلاة.
- أنه يستـعان على وساوس الشيـطان فى الصلاة بالاسـتغراق فى الصلاة والانـخراط فى شعائـرها والتدبر فـيما تشـتمل عليـه من قرآن وتسبيح وتحميد وتهليل وتكبير.
- أن ذكر العبـد لربه من أفضل ما يـعينه على طرد الـشيطان وإن غفلته عن ذكر الله مما يجعله مرتعًا للشياطين قال تعالى: ﴿**ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكًا..**﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين**﴾[2].
- أن الأذان والإقامـة من وجـوه ذكر الله تـعالـى: وأن ارتفـاع الصوت بـذكر الله بصفـة عامة وفى الأذان والإقامـة بصفة خـاصة من الأمور المستحبة ومن خير ما يعين على طرد الشياطين.

* * *

(١) سورة طه: ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف: ٣٦.

من شكر العبد لربه الاجتهاد فى عبادته

روى البخارى عن زياد قال: سمعت المغيرة رضى الله عنه يقول: إن كان النبى ﷺ ليقوم أو ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه: فيقال له فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا.

وروى البخارى أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ويصوم يومًا ويفطر يومًا.

اللغة والبيان:

«فيقال له» لم يذكر القول ولا القائل، وقد ذكر فى روايات آخر ففى رواية لعائشة رضى الله عنها: «لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك؟ وفى رواية لأبى هريرة عند البزار: «تفعل هذا وقد جاءك من الله أن قد غفر لك؟».

«أفلا أكون عبدًا شكورًا» الفاء للسببية وهى عن محذوف تقديره: أأترك تهجدى فلا أكون عبدًا شكورًا، بمعنى أن تهجدى وصلاتى لله على هذا النحو شكر لله تعالى على نعمه الكثيرة والعظيمة على ولا سيما مغفرته لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر فكيف أتركه، وقد ظن السائل أن العبد يبتغى بعبادته ربه نيل مغفرته فكيف برسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع ذلك يجتهد فى عبادة الله والتهجد له بالليل لدرجة أن تتورم قدماه فصحح ﷺ للسائل ظنه وبين له ولجميع المسلمين بقوله: «أفلا أكون عبدًا شكورًا» أن عبادة العبد لربه ليست فقط رجاء مغفرته وإنما لشكر الله على نعمه التى لا

تعد ولا تحصى، والشكر يكون بالقول ويكون بالفعل[١]. وإذا أكثر منه صاحبه سمى شكوراً وقليل من الناس من يكثر من شكر الله على ما أنعم به عليه وفى ذلك قوله تعالى: ﴿**وقليل من عبادى الشكور**﴾[٢].

وفى اجتهاده ﷺ فى طاعة ربه على هذا النحو مع غفران الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ما يفيد أنه يسمح للمسلم بل ينبغى له أن يجتهد فى عبادة ربه على نحو ما كان يصنع سيدنا رسول الله ﷺ أو قريب منه بشرط أن لا يصل إلى حد الملل أو درجة السأم وبما يكون فوق طاقة نفسه، كما يرشد إلى ذلك قوله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» ومعلوم أن العبد مهما بلغ اجتهاده فى طاعة ربه فلن يوفيه بعض حقه من الشكر الواجب عليه ولذلك يقول العلماء: إن الأنبياء عليهم السلام قد ألزموا أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعم الله تعالى عليهم وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها فبذلوا مجهودهم فى عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد.

«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود» قيل: كان داود عليه السلام ينام أول الليل، ثم يقوم لعبادة ربه فى الوقت الذى ينادى الله فيه: «هل من سائل فأعطيه سؤله» ثم يريح نفسه بالنوم بعد ذلك، وإنما كان ذلك أحب إلى الله لما فيه من الرفق بالنفس بابعاد الملل والسأم عنها وذلك يجعلها فى رغبة وحيوية ونشاط واستمرار فى عبادة الله ودوام على طاعته، وخير الأعمال وأفضلها عند الله أدومها وإن قل كما أرشدنا إلى ذلك ﷺ.

---

(١) قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً...﴾. سورة سبا: ١٣.
(٢) الآية السابقة.

ومما لا شك فيه أن إعطاء الجسم قدراً من الراحة بعد الجد فى التهجد والعبادة يذهب ضرر السهر وذبول الجسم كما يمكن صاحبه من اليقظة مبكراً لأداء صلاة الفجر والسعى فى طلب الرزق، كما أن فيه تغلباً على عامل الرياء لأن من ينام السدس الأخير من الليل يصبح نشيط الجسم سليم القوى فيخفى قيامه بالليل وتهجده على من يراه.

ويرشدنا كلامه ﷺ عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

- استحباب الاجتهاد فى عبادة الله وطاعته وفى الصلاة ليلاً بما تطيقه النفس، وبما لا يكون فيه ملل أو سأم لها.
- إن نعم الله على العبد لا تحصى، وينبغى للعبد أن يكثر من شكر الله. بلسانه وعمله ومهما اجتهد العبد فى شكر الله على ما أنعم به عليه لن يوفيه بعض حقه عليه.
- التوسط والاعتدال مسلك محمود ولا سيما فى عبادة الله وطاعته والإفراط والتفريط مسلك مذموم.
- القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

* * *

إحساس الميت بما ينتظره من نعيم أو عذاب

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم.

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يقول: إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدمونى، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شئ إلا الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق.

معنى المفردات والتراكيب:

قوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة» يراد بالإسراع المشى بهمة فوق المشى المعتاد ودون السرعة الزائدة التى يكون فيها مشقة على المشيعين ولا سيما أصحاب الأعذار منهم من المرضى وكبار السن. كما يشمل الإسراع أيضًا: التعجيل بتجهيز الميت وبدفنه.

وقوله ﷺ فى الحديث الثانى: «إذا وضعت الجنازة» قيل يراد بالجنازة بكسر الجيم الميت نفسه وبوضعه فى الخشبة، وقيل: يراد به الخشبة التى يوضع فيها الميت وتحمل على الكتف والأول أولى لقوله ﷺ بعد ذلك: «فإن كانت صالحة قالت» فإن المراد به الميت قوله ﷺ: «وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا يولها أين يذهبون بها؟ «أى ياحزنى، وقد أضيف الويل وهو الحزن والهلاك إلى ضمير الغائب «يا ويلها» وليس إلى ضمير المتكلم وهو الأصل «يا ويلى كراهية إضافة الويل إلى نفسه، أو للنفور من نفسه لما كانت غير صالحة فجعلها كأنها غيره، ويؤيد ذلك ما ورد فى رواية أخرى لأبى هريرة رضى الله عنه: «قال يا ويلتاه: أين تذهبون بى؟».

قوله ﷺ : «يسمع صوتها كل شئ إلا الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق».

قيل يختص ذلك بالميت غير الصالح، وأما الصالح فيكون صوته هادئًا ورقيقًا لا يتأتى معه حصول الصعق للإنسان لو سمعه، وقيل: يحصل الصعق من سماع صوت الصالح أيضًا لكونه غير مألوف.

وقوله: «لصعق» أى لغشى عليه من شدة ما يسمعه وقد يطلق ذلك على الموت.

ويؤخذ من الحديثين الشريفين:

- استحباب التعجيل بتجهيز الميت ودفنه.
- اختصاص الرجال بتشييع الجنازة وحمل الميت ودفنه دون النساء يرشد إلى ذلك قوله ﷺ : «فشر تضعونه عن رقابكم»[١] بضمير الذكور، ولأن فى الحمل والدفن جهودًا جسمية ونفسية لا يطيق تحملها إلا الرجال ولا تتناسب مع ما فطر عليه النساء من وهن وضعف.
- إحساس الميت بما أعد الله له من ثواب ونعيم يسرع لنيله والتنعم به، أو عذاب والعياذ بالله يتمنى الفرار منه.
- فى الحديثين الشريفين إشارة ضمنية إلى ثبوت حساب القبر وأن فيه نعيمًا وعذابًا.
- إن حساب القبر وغيره مما يلقى المرء فى الدار الباقية من أمور الغيب التى خبأها الله وأخفاها تمامًا عن الإنسان حتى يتمنيز الكافر من المؤمن، ومن أهم جوانب الإيمان: الإيمان بالغيب قال تعالى: ﴿**ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه.. الذين يؤمنون بالغيب..**﴾ الآيات[٢]، وقال تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا.. عددًا**﴾[٣].

---

(١) وقوله ﷺ فى الحديث الثانى: «فاحتملها الرجال على أعناقهم».

(٢) سورة البقرة: . (٣) سورة الجن: ٢٦ - ٢٨.

هل يعذب الميت بالبكاء عليه؟

قال البخارى: باب قول النبى ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته لقول الله تعالى: **﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾** وقال النبى ﷺ: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضى الله عنها: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وهو كقوله: **﴿وإن تدع مثقلة﴾** ذنوبًا **﴿إلى حملها لا يحمل منه شئ﴾** وما يرخص من البكاء فى غير نوح، وقال النبى ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، وذلك لأنه أول من سن القتل».

الشرح والتوضيح:

القول الذى بين أيدينا ليس كله حديثًا شريفًا، وإنما يعد تفسيرًا وتوضيحًا من البخارى لقوله ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» بأن هذا البكاء إذا بولغ فيه فوصل حد النوح والصياح كما فعل الجاهلون أما أن يكون للميت قبل موته سبب فى حدوثه بأن كان يقع منه ذلك وهم يقلدونه فيما كان يفعله أو وصاهم بالنوح والصياح عليه وعد مآثره كما يقع من بعض الجاهلين أو كان له شعور وإحساس بوقوع ذلك من أهله بعد موته فلم ينههم عن ذلك ولم ينكره عليهم وهذا هو الذى يعذب بصياح أهله ونواحهم عليه بعد موته لأن ما وقع منهم كان بسببه وبرضاه وقد كان يمكنه أن يحذرهم منه وينهاهم عنه قبل موته لكنه لم يفعل، والمرء مطلوب منه أن يقود أهله وأتباعه إلى كل خير وأن يبعدهم ويحذرهم من كل سوء ومكروه حيث يشاركهم فيما ينالون بسببه من ثواب وحسنات ويصيبه ما يقترفون بسببه من أوزار وسيئات.

وعلى ذلك قولـه تعالى: ﴿**قوا أنفسكم وأهـليكم ناراً**﴾(١) وقوله عليه الصـلاة والسلام: «**كلكم راع ومسئول عن رعـيته**» وقوله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان عـلى ابن آدم الأول كفل من دمها**، وذلك لأنه أول من سن الـقتل «**أما ما يقـع من صياح ونواح ولطـم للخدود** وشق للجيوب وغير ذلك من مظاهر الجزع وأفعال أهل الجهل التى نهى عنها الإسلام لـما تدل عليه من سخط ويأس وعدم الـرضا بما قضى الله وقدر فـإن الميت لا يعذب به إذا لم يـكن له مدخل فى وقوعه، أو قام به أهله على خلاف ما كان قد حذرهم منه ونبههم إلى البعد عنه ويشير إلى ذلك قوله: «فإذا لم يكن من سنـته» أى بدون سبب منه وعلى غير رضا منه، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾(٢) أى لا تتحمل نفس مثقلة بالذنوب ذنوب نفس أخرى بدون جناية منها، وقوله سبحانه: ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملهـا لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى**﴾(٣) أى لا يستجاب لطـلب أصحاب الذنوب الثقيلـة بالمعاونة والمشاركة فى تخفيف ما يحمـلون من ذنوب ولو كان طلبهم ذلك من أقرب الناس وأحبهم إليهم فى الدنيا.

فنرى أن قول البخارى السابق يفسر ويوضح ما ورد عنه ﷺ من تعذيب الميت ببكاء أهله عليه بإثبات التعذيب إذا كان من سنة الميت أى بسببه ورضاه ونـفيه إذا لم يكن من سنته أى بغـير رضاه و،بدون سبب منـه وقد وثق البـخارى تفـسيره كـما رأينا بمـا ورد من كلام الـرسول ﷺ.

ويرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

- أن من سن سن حسـنة كان له أجرها وأجر من عـمل بها، وأن من

---

(١) سورة التحريم: ٥. (٢) سورة فاطر: ١٨.

(٣) الآية السابقة.

سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها.

● أن البكاء المحظور والممنوع على الميت هو البكاء الذى يصحبه نوح وصياح ولطم وغير ذلك أما البكاء العادى فلا بأس به لأنه من الفطرة وقد بكى ﷺ لوفاة ابنه إبراهيم وقال: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولما مات خالد بن الوليد رضى الله عنه اجتمع نسوة من بنى عمه يبكين عليه، فقيل لعمر رضى الله عنه: أرسل اليهن فانههن فقال عمر رضى الله عنه: دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع «أى وضع للتراب على الرأس» أو «لقلقة» أى الصوت. فالبكاء العادى لا بأس به، والمحظور الذى حذر منه ﷺ هو الذى يبلغ حد النوح والصياح لما رواه البخارى عن ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه».

● ثبوت حساب القبر، وأنه بالموت تنتهى دار الفناء وتبدأ دار البقاء لقوله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار».

● أن المبالغة فى عد مآثر الميت وإبراز بطولاته من أهله وعند الصدمة الأولى إثم يرتكبه الأحياء وعذاب يلحق الميت فى قبره، وواجب على أهل الميت وأولى العلم دفع هذا المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة رحمة بالميت والحى.

* * *

الصبر عند الصدمة الأولى

روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مر النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر فقال: اتقى الله واصبرى، قالت: إليك عنى، فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبى ﷺ فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.

توضيح المفردات والتراكيب:

قوله ﷺ: «اتقى الله واصبرى» قيل إن دعوته ﷺ المرأة إلى تقوى الله والصبر لأنه كان فى بكائها قدر زائد من النواح والصياح والجزع، وقيل: إن أمره ﷺ لها بتقوى الله توطئة وتمهيد لأمره لها بالصبر وكأنه ﷺ يريد أن يقول لها: خافى غضب الله إن لم تصبرى، ولا تجزعى لتنالى ثواب الله.

قوله: «قالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه» أى ردت المرأة على أمره ﷺ لها بتقوى الله والصبر بأن قالت له: ابتعد عنى فإنك لم تصب بما أصبت به ولا تحس بما أحسه وهى فى قولها ذلك لا تعرف أن الذى يكلمها وتكلمه سيدنا رسول الله ﷺ.

قوله: «فقيل لها: إنه النبى ﷺ فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك».

قيل إن فائدة هذه الجملة «فلم تجد عنده بوابين» بيان عذر المرأة فى عدم معرفتها به ﷺ، حيث كان من شأنه ﷺ أن لا يتخذ بوابًا مع قدرته على ذلك تواضعًا، وقيل: إن المرأة لما قيل لها إنه النبى ﷺ استشعرت خوفًا وهيبة فى نفسها فتصورت أنه مثل الملوك له حاجب وبواب يمنع الناس من الوصول إليه فوجدت الأمر بخلاف ما تصورته.

قوله ﷺ : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» فى هذه العبارة إجابة وتوضيح منه ﷺ لغير ما ذكرته المرأة، فقد جاءت إليه ﷺ معتذرة بقولها: «لم أعرفك» فلم يرد ﷺ على اعتذارها وإنما رد بقوله: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» وسيدنا رسول الله ﷺ بإجابته هذه، يريد أن يقول للمرأة إنه لم يكن منى غضب لما كان منك، ولا يطلب منك إعتذار فذلك أمر لا أهمية له، ولا قيمة للمعرفة إلا إذا كانت لله، إنما الأمر الذى يهتم به ويلتفت إليه أن الصبر الذى يحقق لصاحبه المثوبة والأجر من الله هو الذى يكون عند أول نزول المصيبة ووقوعها حيث يكون المصاب فى حيرة وذهول بخلاف ما يكون بعد ذلك حيث يتحقق السلو والنسيان بمرور الوقت فلا يكون له بالقطع من الثواب ما يكون للصبر عند اللحظة الأولى من نزول المصيبة. والتعبير «بأنما» يؤكد حصول الثواب للصابرين عند الصدمة الأولى ويدل على أنه من الوضوح والظهور بمكان.

ما يرشد إليه الحديث:

ويرشدنا الحديث عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

- جواز زيارة القبور للإتعاظ والاعتبار للرجال مطلقًا، وللنساء عند أمن الفتنة والبعد عن التبرج والصياح.
- أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقوم بذلك فى تواضع ورفق بالجهلة والعوام، ومسامحة للمصابين وقبول اعتذارهم وتقدير ظروفهم.
- أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من أولى الأمر والمسؤولين لا يحجبون عن الناس ولا ينعزلون عنهم إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك.
- أن على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يتحمل ما يصيبه من أذى وما يلقى من إهانة ما دام يحتسب بذلك وجه الله.

البكاء المسموح به عند وقوع المصيبة

عرفنا أنه ليس كل بكاء من الأهل على ميتهم يكون سببًا فى تعذيبه وأن البكاء الذى يعـذب الميت بسببه هو الذى يبلغ حـد الجزع ويصحبه صراخ ونواح ويكون للـميت قبل موته سبب فى حـدوثه بأن كان يقع منه ذلك فقلده أهله فيما كان يصنع، أو كان يحس وقوع ذلك من أهله بعد موته فلم يحذرهم ولم ينهـهم عن ذلك فأما ما يقع من ذلك بدون تسبب من الميت أو سبق تحذيره لهم قبل موته فلم ينتهوا، أو كان البكاء بكاء خفيفًا لا يتجاوز دمع العيـن وحزن القلب فلا يعذب الميت به وفى هذا الحديث الشريـف نرى بوضوح أن البكاء الخفيف مـسموح به وأنه من الفطرة ولا يعذب الميت بسببـه، فيروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين، وكان ظئرًا لإبراهيم عليه السلام فـأخذ رسول الله إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحـمن بن عوف رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف: إنها رحمـة، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يـحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

شرح المفردات:

قوله: «.. على أبى سيف القين وكان ظئرًا لإبراهيم» يراد بالقين: الحداد، وتطلق عـلى كل صانع، يقال: قان الشـئ إذا أصلحه، ويراد بالظئر: المرضـع وأطلق عليه لأنه كان زوج المرضعـة، وأصل الظئر من ظأرت الناقـة إذا عطفت على غـير ولدها فقيـل ذلك للتى ترضـع غير ولدها، وأطلق ذلك على زوجها لأنه يشاركها فى تربيته غالبًا.

قوله: «وإبراهيم يجود بنفسه» أي بخروجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ماله.

قوله: «فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان» أي يجرى دمعهما.

قوله: «وأنت يا رسول الله؟» قيل: إن فيها معنى التعجب والواو للعطف على معطوف عليه محذوف أي: إن الناس لا يصبرون على المصيبة وأنت تفعل كفعلهم، كأنه يتعجب على بكائه ﷺ مع عهده منه أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع فأجابه ﷺ بقوله: «إنها رحمة» أي ما رأيته منى من بكاء إنما هو رقة القلب وليس من الجزع.

قوله: «ثم أتبعها بأخرى» أي أتبع الدمعة بدمعة أخرى، أو أتبع قوله «إنها رحمة» بما يفصله ويوضحه بقوله: «إن العين لتدمع... الخ.

ويرشدنا الحديث عدا ما سبق إلى فوائد منها:

- أن البكاء الجائز والمسموح به عند وقوع المصيبة هو ما كان بدمع العين ورقة القلب بدون صراخ أو نواح يعبر عن عدم الرضا بما قضى الله وقدر.
- مشروعية تقبيل الولد وشمه، ومشروعية الرضاع والحضور عند المحتضر.
- جواز توجيه الخطاب لشخص أو لجماعة وإرادة غيرهم بذلك فقد وجه ﷺ الكلام لولده إبراهيم عليه السلام الذى لم يكن يعى كلامه ﷺ لصغر سنه ولاحتضاره ويقصد بذلك الحاضرين وجميع المسلمين.

* * *

من أعظم صور الصبر والاحتساب

روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: اشتكى ابن لأبى طلحة قال: فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئًا ونحته فى جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة، فبات فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى «مع النبى ﷺ ثم أخبر النبى ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما»، قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

الشرح والتوضيح:

قوله: «اشتكى ابن لأبى طلحة» أى مرض، ويكنى بالشكوى عن المرض حيث أنها من لوازم المرض ومظاهره، وابن أبى طلحة المذكور هو «أبو عمير» الذى كان النبى ﷺ يمازحه ويقول له: «يا أبا عمير ما فعل النغير».

قوله: «فمات وأبو طلحة خارج» أى مات أبو عمير بن أبى طلحة فى وقت كان أبوه فيه خارج المنزل عند رسول الله ﷺ.

قوله: «فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئًا ونحته فى جانب البيت» أى لما مات الابن وأبوه خارج المنزل قامت أمه أم سليم وحدها بتجهيزه فغسلته وكفنته وغطته بغطاء ووضعته فى ناحية من المنزل بكل صبر وإيمان وثبات وبدون جزع ونواح وصراخ.

قوله: «قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح» تعنى نفسه استراحت بالموت من آلام المرض ومتاعبه وظن زوجها أبو طلحة

أنها تريد أن نفسه هدأت وسكنت بالنوم وليس بالموت أماقولها: وأرجو أن يكون قد استراح» فإنها فلم تجزم بذلك على سبيل الأدب، ويحتمل أنها لم تكن تعلم أن الطفل لا يـعذبه الله ففوضت الأمر إلى الله تعالى راجية أن يكون قد استراح بالموت من نكد الدنيا.

قولـه: «وظن أبو طلـحة أنهـا صادقة» أى بالـنسبـة لما فهمـه من كلامها، وإلا فهى صـادقة بالنسبة لما أرادت، وقد حسـن ما أخبرت به زوجها وإن كان على خلاف الحقيقة لمقصـدها الطيب فى التخفيف على زوجها وتجنيبهما معًا الجزع والقنوط وعواقبهما الوخيمة.

قوله: «فبـات فلما أصبح اغتـسل» أى بات الليلة هـذه مع زوجته فلما أصبح اغتسل من الجنابة ويكنى بذلك عن الجماع تأدبًا وتحاشيًا من ذكر ما يستحيا منه، وقد ورد فى روايـات متعددة أن زوجته قد شجعته لذلك زيادة ومبالغـة فى تخفيف وقع المصيبة علـيه حذرًا من الجزع بأن تطيبت له وتزينت مع إظهار السرور والسعادة.

قوله: «فلما أراد أن يخرج أعلمته أنـه قد مات» أى أعلمته الحقيقة بعد أن قضى ليلته سعيدًا مسـرورًا وكان لذلك أثر كبير فى تهوين الأمر علـيه بخلاف ما كان سيـقع منه لو أنهـا أعلمته الأمر فـى أول دخوله المنزل وفى رواية عند مسلم أنهـا قالت له: يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قومًا أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عـاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك.

ويرشدنا الحديث الشريف عدا ما سبق إلى دروس ومواعظ منها:

- قوة عزم وعظيم صبر هذا الزوج وأنه صبر عند الصدمة الأولى ينبغى أن يحتذى به جميع أهل البلاء من الرجال والنساء، وقد ذكروا أن أم سليم كانت تشهد القتال وتقوم بخدمة المجاهدين.

- احتساب المصاب لمصيبته وثباته واستعانته بالله عند الصدمة الأولى سبيل لنيل ما أعده الله لعباده الصابرين مصداقًا لقوله: ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾[1] وإخلافه بأفضل وأعظم مما انتزع منه.
- مشروعية المعاريض الموهمة للكذب إذا كانت لمقصد حسن ولا يضيع بسببها حق لمسلم، وقد حمل أم سليم عليها بتغيير الحقيقة عن زوجها مبالغة فى الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء إخلافه عليها ما فات منها إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر فى أول دخوله المنزل عليها لاشتد حزنه وربما أفضى ذلك إلى جزعه ولم تبلغ الغرض الذى قصدته، فلما علم الله نيتها بلغها مناها وأصلح لها ذريتها.

* * *

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

ثبت الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩٧/١٣٣٥٠
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-19-4680-3